الجريمة الكاملة

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ ـ ٢٠١٩م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٨/٢٦٣٢٨

بطاقة فهرسة

الجمال، أغر

الجريمة الكاملة: رواية/ د. أغر الجمال، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٨

٢٨٠ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٧-١٦٨-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣,٩٠٣١

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

محمد ضوه

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

الجريمة الكاملة

رواية

د. أغر الجمال

إهداء

إلى مَن علمنى أن الطب ... أجمل المهن الانسانية
وأن القراءة ... أجمل المتع الوجدانية
إلى ... أبى

(١)

كان العميد محمود على وشك مغادرة مكتبه، فوجد أحد الجنود يدخل حاملًا رسالة خاصة به، جاءت عن طريق البريد، فتحها فوجد تاريخها منذ أسبوع، ومكتوبة على الكمبيوتر، وجاء فيها ما يلي:

"العميد محمود المحترم.. أعلمُ أن جميع زملائك ورؤسائك يصفونك بالضابط الأذكى؛ لذا قررت أن ألعب معك، فأنا أعشق اللعب مع الأذكياء.

في البداية، دعني أسألك إن كنت تؤمن بأن هناك جريمة كاملة أم لا؟ أنا على يقين أن إجابتك ستكون بالنفي، ولكني أختلف معك.

وحتى أثبت لك ما أقول، فسأخطط لجريمة، وستقوم أنت بالتحقيق فيها، فإن فشلت في الوصول للجاني، فعليك أن تعترف بأني الأذكى، وأنه توجد الجريمة الكاملة.

وحتى أجعل اللعبة أكثر تشويقًا، فلن أكون الجاني كما تتوقع، ولكن سأكون أنا المجني عليه.

وعلى الرغم أني لا أعلم متى سيصلك خطابي هذا، ولكني سأبدأ تنفيذ الجريمة الكاملة، اليوم السبت، الخامس من يوليو.. والموافق يوم قتلي".

مديحة الشناوي

قرأ العميد محمود الرسالة مرة، وأعاد وقرأها مرة أخرى، وبالرغم من أن مضمون الرسالة يوحي بأن كاتبها معتوه، فإن شيئًا في نفسه جعله يطوي الرسالة ويضعها في جيبه، ثم غادر المكتب في عجالة؛ حتى يتمكن من الاحتفال مع أسرته بنجاح ابنه البكري مازن، والذي حصل في الثانوية العامة على مجموع، يؤهله للالتحاق بكلية الطب، التي كانت مبتغاه.

في المساء، كان منزل العميد محمود ممتلئًا بالضيوف من الأهل والأصدقاء، الذين حضروا لمشاركتهم الاحتفال بتفوق مازن، ومنعت أصوات الأغاني التي كانت تهزُّ أرجاء المكان العميد محمود من سماع صوت رنين موبايله، حتى جاءت زوجته وأخبرته أن أمين شرطة حضر لمقابلته، والذي أبلغه بعد أن قدم له التحية العسكرية، أن السيد اللواء مدير مباحث العاصمة، حاول الاتصال به مرارًا ولكن تليفونه لا يردّ.

اتصل محمود باللواء الشوربجي مدير المباحث، واعتذر بشدة، وأوضح له الظروف العائلية التي حالت دون سماع صوت الموبايل، فبارك له على

نجاح ابنه، وطلب منه الحضور فورًا لأمر عاجل، وعلى الفور، استأذن من ضيوفه، وتركهم متوجهًا لمديرية الأمن.

***

منذ تخرج محمود من كلية الشرطة وهو يعمل في مجال البحث الجنائي، وذاع صيته بين أقرانه ورؤسائه؛ لذكائه الحاد في حل جميع القضايا التي تصدى لها، وكان يتميز بعشقه لعلم النفس، والذي اعتمد عليه بشكل أساسي في حل القضايا الغامضة كافة التي خاضها، ومع مرور السنين، ازدادت خبرته، للدرجة التي أصبحت الوزارة تكلفه فقط بالقضايا الغامضة التي يصعب حلها.

ما إن دخل محمود مكتب اللواء الشوربجي، حتى ألقى عليه التحية العسكرية، وكان يجلس على رأس مائدة الاجتماعات، ومعه عدد من الضباط، فبادله التحية، وأذن له بالجلوس، ودار الحوار التالي:

– من المؤكد يا محمود أنك استنتجت لماذا طلبتك على هذا النحو.

– بالتأكيد يا أفندم، أتوقع أن هناك جريمة، ولكن لا أعرف طبيعتها.

– بالفعل، هناك جريمة قتل وقعت منذ أسبوع، ولكن للأسف حتى الآن لم يتمكن فريق البحث من الوصول للجاني، ولقد استطعنا إخفاء الخبر عن الصحافة طوال الفترة الماضية، ولكن للأسف تسرَّب الخبر اليوم، ومن

المؤكد أن الإعلام لن يكون له حديث إلّا عن هذه الجريمة، وسنكون في موقف حرج، إن لم نحل لغز هذه الجريمة في أسرع وقت.

– بالتأكيد يا أفندم، ولكن هل لي أن أعرف ما الجريمة؟ ومن فريق البحث الذي سأعمل معه؟

– هي جريمة قتل لسيدة ثرية، وقعت داخل ڤيلتها في القاهرة الجديدة، وهي من الجرائم الغامضة التي تستهويك؛ لغياب دافع ارتكاب الجريمة حتى الآن، أمَّا عن فريق البحث، فقد أمرت بتشكيل فريق تكون أنت قائده، ومعك الرائد أسامة (ثم أشار على ضابط يجلس على طرف الطاولة والذي وقف وحيَّا العميد محمود) رئيس مباحث القسم التي وقعت الجريمة في دائرته، وسيطلعك على كل تفاصيل الجريمة، وآخر ما وصلت إليه التحريات، ولك أن تستعين بمن تشاء، ولكن أرجو أن يقع الجاني بين أيدينا في أسرع وقت ممكن.

– بإذن الله يا أفندم.

قام محمود واصطحب معه أسامة، بعد أن قدما التحية العسكرية للواء الشوربجي، وتبادلا التحية مع باقي الضباط.

في طريقه إلى مكتبه داخل مديرية الأمن، رحَّب محمود بأسامة، وحفَّزه وطمأنه ببعض الكلمات التشجيعية، وذكَّره أسامة أنه التقاه من قبل في قضية

منذ ٥ سنوات وكان وقتها معاون مباحث، وبالفعل أخبره محمود أنه يتذكره ويتذكر القضية.

عندما دخل مكتبه، طلب من الجندي عدم السماح لأي شخص بالدخول، كما طلب منه إحضار فنجانين من القهوة، بعد أن سأل أسامة ما الذي يرغب أن يشربه.

أمسك بقلمه، وفتح دفترًا خاصًّا به، ثم طلب من أسامة أن يروي له كل شيء عن الجريمة دون أن ينسى شيئًا مهمًّا تصور أنه بسيط، وبدأ أسامة في الحكي قائلًا:

– يوم السبت الماضي، كنت في يوم راحتي، وتلقيت اتصالًا هاتفيًّا في الساعة الحادية عشرة ليلًا تقريبًا، من النقيب أيمن معاون مباحث القسم، يبلغني أن هناك بلاغًا بوقوع جريمة قتل لسيدة في العقد الخامس من عمرها، داخل ڤيلتها في التجمع الخامس.

على الفور انتقلت إلى مكان الحادث، فوجدت النقيب أيمن قد سبقني، وعاينت الجثة ظاهريًّا، فوجدت أن الضحية مطعونة في رقبتها من الخلف، بطريقة توحي أن القاتل محترف، ويعرف كيف تكون الطعنة قاتلة، وكانت الضحية ملقاة على وجهها، ولا يوجد آثار لاعتداء بدني أو جنسي عليها.

لم نجد أي آثار للسرقة، وكانت جميع مقتنيات الضحية موجودة داخل خزينة في غرفة نومها، ولم نجد أي محاولة لفتحها، وعثرنا على مفتاحها مخبأ

بين الملابس بأحد الدواليب، وكانت عليه بصمات القتيلة، وفتحنا الخزينة، فوجدنا كمية كبيرة من الجواهر، بالإضافة لمبلغ مالي ١٠٠ ألف جنيه.

بعد ذلك حضر الطبيب الشرعي، وأثبت أن سبب الوفاة طعن في الرقبة، وأن الوفاة وقعت بين الساعة الرابعة والسادسة عصرًا.

– وماذا عن أداة الجريمة؟

– لم يتم العثور عليها، ولكن الطبيب الشرعي رجَّح أنها سكين أو خنجر.

– ومن اكتشف الجريمة؟

– البواب، فالقتيلة تعيش بمفردها، تأتي لها شغالة كل يوم من الساعة التاسعة صباحًا، وتغادر في الخامسة مساء، وإجازتها يوم الجمعة، ولكن في هذا اليوم طلبت القتيلة من الشغالة أن تغادر في الثانية ظهرًا؛ لأن لديها ارتباطات خارجية ولا تحتاجها.

أمَّا البواب، فهو يقيم بغرفة، تقع في ممر جانبي بالڤيلا، يعيش فيها مع زوجته وطفليه، وهو يعمل لدى القتيلة منذ ما يزيد عن أربع سنوات، وفي يوم الجريمة، طلبت منه القتيلة، أن يأخذ أسرته في الثانية ظهرًا إلى نزهة خارجية، وأعطته مبلغًا من المال، على أن يعود في العاشرة؛ لأنها ستغادر المنزل ولن تأتي قبل هذا الوقت، وبالفعل خرج البواب، وعاد قبل الحادية عشرة بقليل، فوجد باب الڤيلا الداخلي مواربًا، فرنَّ الجرس وطرق الباب ولكن أحدًا لم يردّ.

دخل يتفقد الأمر، فوجد مخدومته ملقاة على وجهها، وعرف أنها ميتة من منظرها، فجرى وأبلغ الشرطة.

– هل للقتيلة زوج وأولاد؟

– القتيلة مطلقة منذ عشر سنوات، ولها ابن وحيد مهاجر إلى كندا، متزوج وله ٣ أطفال، ويحضر هو وأسرته كل عامين؛ لقضاء شهر أغسطس مع والدته، وكان مقررًا أن يأتي الشهر المقبل هذا العام، وقد حضر إلى مصر بمجرد علمه بالخبر.

– هل كانت تعمل بأي وظيفة؟

– هذه السيدة ورثت عن أبويها مبلغًا هائلًا من المال، كفل لها مقعدًا بين الطبقة المرفهة في المجتمع، وقد أكملت تعليمها الجامعي، لكنها لم تعمل، واكتفت فقط بنشاطها المتميز في الأعمال الخيرية، حتى أصبح اسمها مألوفًا بين ناشطات المجتمع الخيري في البلد.

– وما اسمها؟

– مديحة الشناوي.

(٢)

(وقعت أحداث هذا الفصل قبل يومين)

في إحدى قاعات جامع عمر مكرم، أُقيم سرادق العزاء للسيدة مديحة الشناوي، ووقف في مقدمة من تقبَّل العزاء ثلاثة أفراد هم، مهند ابن القتيلة، والمهندس زكي والده، والأستاذ سالم الشناوي ابن عم القتيلة.

امتلأ سرادق العزاء عن آخره؛ نظرًا لعراقة عائلة القتيلة إلى جانب نشاطها الاجتماعي الواسع والذي عمل على توسيع دائرة معارفها.

عندما انتهت مراسم العزاء، وبعد مغادرة آخر الحاضرين، تأبط المهندس زكي ذراع ابنه، وهمس في أذنه قائلًا:

– هل جلست مع المحامي بخصوص تركة المرحومة والدتك؟

اندهش مهند من سؤال أبيه، ونظر له مستغربًا، وردَّ:

– لقد حضرت إلى مصر اليوم عصرا، والوفاة لم يمضِ عليها سوى خمسة أيام، وأنا ما زلت لا أصدق أن أمي قُتلت، فهل تتصور أن فكرة التركة قد خطرت على بالي؟!

– اعذرني يا مهند، فقد تخيلت أن إقامتك الطويلة في كندا أكسبتك الفكر الغربي، والذي يتسم بالجدية والبعد عن العواطف الجياشة، التي نتسم بها نحن الشرقيين.

– يا أبي، مشاعري نحو والدتي، لا تغيرها بلد أو يعبث بها فكر مهما يكن، وأنا مهما أتغرب فمشاعري ستبقى شرقية، فأنا سعيد بها ولن أغيرها أبدًا.

– كلامك هذا يسعدني جدًّا يا مهند، ولا تتخيل مدى سعادتي به؛ لأنه كما يعكس مشاعرك تجاه المرحومة والدتك، فبالتأكيد ستكون نفس المشاعر نحو والدك.

– بالتأكيد يا أبي.

– إذًا دعنا نذهب من هنا؛ لأني أريد أن أحدثك في أمر مهم.

– هل ترغب في الذهاب معي إلى ڤيلا والدتي؛ لنكمل الحديث هناك؟

فوجئ مهند بردّ فعل أبيه، عندما ردَّ في عصبية وانفعال قائلًا:

– لا، لا، أنا لا أستطيع دخول ڤيلا تمت فيها جريمة قتل بشعة مثل التي حدثت.

– إذًا أين تريد أن نذهب؟ واعذرني يا أبي؛ فلن أذهب إلى منزلك؛ لأنك تعلم جيدًا عدم ارتياحي لزوجتك.

– دعنا نذهب إلى أحد الفنادق القريبة ونتناول العشاء هناك، فأنا على يقين أنك لم تأكل منذ قدومك اليوم إلى مصر.

وبالفعل ذهبا معًا إلى أحد الفنادق المطلة على النيل، وفي أثناء تناول العشاء، بدأ الأب حديثه قائلًا:

– حقيقة لا أعرف من أين أبدأ الكلام، ولكن أنت ابني البكري وسندي الوحيد في هذه الدنيا. ثم توقف لحظات قليلة يستجمع أفكاره وواصل يقول:

– أنا يا مهند أمُرُّ الآن بظروف مادية عصيبة تهدد حياتي بالانهيار، ولا أريد أن أصدمك، ولكن الحقيقة أني مُعرَّض للسجن.

كان مهند يستمع لأبيه وهو يتناول طعامه، وعند سماعه كلمة السجن، سقطت الشوكة من يده، ونظر إلى أبيه في ذعر شديد وقال:

– سجن! أرجوك أخبرني يا أبي سريعًا عما حدث؟

– أنت تعلم أن لديَّ مكتبًا هندسيًّا شراكةً مع واحد من أصدقائي، خططنا لإقامة مجموعة أبراج سكنية، واضطررنا لأخذ قرض من البنك، ولكن

نتيجة توتر الأوضاع الاقتصادية في البلد بعد ثورة يناير وعدم الاستقرار الذي استمر لفترة غير قصيرة، توقف المشروع بمجرد أن بدأ.

بدأت فوائد الدين في التزايد، وإذا بشريكي يهرب من البلد حاملًا جزءًا من الأموال، وتركني وحيدًا أواجه المشكلات، بل قل الكوارث، ولم أدخر جهدًا مع البنك في محاولات مضنية لتسهيل الدفع، وبالفعل نجحت لحد ما، أو تستطيع القول إني نجحتُ للحد الذي جعلني لم أدخل السجن حتى الآن.

لكن للأسف الشديد، أصبح لزامًا عليَّ أن أسدد في مدة لا تتجاوز شهرين من الآن، مبلغ ٢٠ مليون جنيه، وإلّا لا بديل عن السجن، وبالرغم من تصفيتي كل أملاكي ومدخراتي، لم أستطع أن أدبر إلّا نصف المبلغ.

هذه قصتي، ولعلك تفهم الآن لماذا سألتك عن تركة والدتك؛ لأنها الباب الوحيد لإنقاذي من سجن ينتظرني.

ظل مهند محملقًا في والده دون أن يردّ ببنت شفة، وساد الصمت بينهما لفترة ليست بالقصيرة، وإذا بوجه مهند تكسوه جدية وغلظة وتكلم قائلًا:

– الآن سأتحدث معك بالشخصية الغربية التي استغربت أني لم أتشبع بها، وأسألك: ماذا كنت ستفعل إن لم تمت أمي؟

أحنى الأب رأسه، ونظر إلى الطاولة، وجاوب دون أن يرفع رأسه قائلًا:

– كنت سأستسلم للسجن.

لم يردّ مهند، بل ظل ينظر له بعينين شاردتين.

***

بعد أن صارح المهندس زكي ابنه مهندًا بخطورة موقفه المادي، عاد إلى منزله، وكانت زوجته هويدا تنتظره، وبدا عليه الهم والحزن، فبادرت تسأله:

– ما سبب هذا الحزن؟ هل صدقت ما حاولت أن تظهره للناس، أنك حزين على المرحومة؟

– لقد تكلمت مع مهند، وحكيت له كل شيء.

وبصوتٍ يكسوه القلق ردَّت:

– وماذا كان رد فعله؟

– لم يعلق، وظل يحملق في وجهي.

– وما معنى هذا؟

– أشعر أنه يراوده شك بأنني القاتل.

– هل أخبرته بأي شيء عما حدث يوم الجريمة؟

– كلا بالطبع.

– إذًا اهدأ، وإياك أن تحكي له كلمة واحدة عن هذا اليوم، وإلّا ستخسر كل شيء.

***

في شقة متواضعة بشارع فيصل بحي الهرم، جلس سالم ابن عم القتيلة وحيدًا في بلكونة شقته، ينظر إلى السماء، وينفث دخان سيجارته بحزن ممزوج بغضب، وكان قد عاد توًّا من العزاء.

فجأة ألقى السيجارة، ودخل إلى غرفة نومه، وأمسك ببرواز موضوع على كومودينو بجوار سريره، وبداخل البرواز صورة مديحة، وظل محتضنًا البرواز وبدأ يبكي كالأطفال.

بعد أن بدأت أنفاسه المتلاحقة تهدأ رويدًا رويدًا، ودموعه المنسابة في سلاسة أصبحت أكثر بطئًا، أخرج سالم البرواز من حضنه، وظل ينظر إلى صورة مديحة، وإذا بشريط ذكريات يمر أمامه.

رأى فيه نفسه داخل قريته بمحافظة الدقهلية، ومديحة ابنة عمه تقفز محاولة قطف ثمرة مانجو من إحدى الشجيرات، التي تمتلئ بها أرض عمه، وهو يراقبها بحب وشغف.

ثم فجأة يقفز أمامه مشهد اليوم المشؤوم، يوم السبت الخامس من يوليو، حين وجد نفسه يصارحها بحبه وبرغبته في الارتباط بها، ولكنه فوجئ برفضها لطلبه بطريقة ساخرة، لم يتوقعها قط منها.

وعند هذه اللقطة في شريط ذكرياته، إذا بنوبة هياج تصيبه، ويمسك بالبرواز ويهزه بعنف، ويصرخ مرددًا:

" كان لا بد أن توافقي على أن أتزوجك، بدلًا من أن تسخري مني".

***

غادر صابر سرادق العزاء، وسار على غير هدى، فوجد قدميه تسوقانه إلى كورنيش النيل، وارتكز على السور الحديدي، وأخذ يحملق في مياه النيل، وظلمة الليل تضفي عليه غموضًا ووحشة، حاول جاهدًا أن يتخلص من الصوت الذي يلازمه، ويهمس في أذنه بأسئلة لا يعرف إجابتها، ولكنها جعلته على وشك الانهيار، وإذا به يجد نفسه، يردد همسًا ما يسمعه في أذنه ويقول:

" لماذا ذهبت إلى العزاء؟ هل هي الشماتة؟ هل هو شعور بالذنب؟ ".

وفجأة، ردد بصوت يكاد يكون مسموعًا:

" لماذا فعلت هذا؟ لماذا فعلت هذا؟".

(٣)

ما إن نطق الرائد أسامة باسم مديحة الشناوي، حتى كاد العميد محمود يشهق بصوت عالٍ، لولا رباطة جأشه والتي اكتسبها من طبيعة عمله على مدار السنين، ولكنه لم يستطع أن يخفي لمعة ومضت في عينيه، لمحها أسامة على الفور، مما دفعه لسؤاله إن كان يعرفها من قبل، فأجابه باعتقاده أنه سمع باسمها، ولكنه أخفى عليه أمر الرسالة، ودون أن يشعر، مد يده وتحسس جيبه، فوجد الرسالة ما زالت في مكانها، وأراد أن يختلي بنفسه، فطلب من أسامة أن يسبقه، ويرتب لمعاينة ثيلا القتيلة، ومقابلة ابنها.

بمجرد خروج أسامة من المكتب، أخرج محمود الرسالة من جيبه، وبدأ يقرؤها، ولكن بصورة تختلف كلية عن قراءتها في المرة السابقة، فكان يدقق في كل حرف وكل كلمة، ولكنه في النهاية لم يستطع أن يستخلص منها شيئًا، حتى اسم القتيلة هو على يقين أنه لم يرد عليه من قبل، ولكنه في نفس الوقت

يعلم أن ذاكرته في الآونة الأخيرة لم تعد تسعفه كما كانت في الماضي، حتى عندما أخبره أسامة، أنه التقاه من قبل في تحقيق أحد القضايا، وردَّ عليه بأنه يتذكره ويتذكر القضية، لم يكن في حقيقة الأمر يتذكر شيئًا.

كادت الأسئلة التي قفزت إلى عقله أن تعصف به، فجميعها دون إجابة، فأخرج مفكرة صغيرة اعتاد أن يدون بها الملاحظات المهمة التي تستوقفه في كل قضية يحقق فيها، وكانت لكل قضية مفكرة خاصة بها، وفي أول صفحات تلك المفكرة كتب تلك الأسئلة:

١- هل هناك شخص طبيعي يضحي بحياته من أجل إثبات أنه أذكى من شخص آخر؟

٢- ما السبب الذي دفع مديحة لتدخل معه في تحدي وهو لا يعرفها؟

٣- تستطيع مديحة أن تخطط لتقتل شخصًا ما، ولكن كيف خططت لتجعل شخصًا ما يقتلها؟

قرأ محمود تلك الأسئلة مرة ومرتين، وهزَّ رأسه، وقال همسًا:

"هذه واحدة من أغرب القضايا التي حققت فيها، بل أستطيع أن أجزم أنها ستكون الأغرب على الإطلاق".

***

كانت الساعة الحادية عشرة ليلًا، عندما توقفت سيارة الشرطة أمام ڤيلا مديحة، ونزل منها العميد محمود وبرفقته الرائد أسامة، وتوجها داخل الڤيلا.

وقف مهند يستقبلهما عند باب الڤيلا الداخلي، وكان قد التقى أسامة من قبل، والذي قام بدوره بتقديم العميد محمود له، وبعد تبادُل كلمات العزاء والمجاملة بينهم، بدأ محمود الكلام قائلًا:

– بدايةً أعتذر عن زيارتي في هذا الوقت المتأخر، ولكني توليت القضية منذ نحو ٣ ساعات، ولا أريد أن أضيِّع وقتًا؛ حتى نتمكن من الوصول إلى الجاني في أسرع وقت.

– مرحبًا بك سيادة العميد في أي وقت، وأنا وجميع مَن في المنزل سنكون تحت أمرك؛ لتقديم أي مساعدة تطلبها.

– أشكرك على هذه الروح الطيبة، وبالمناسبة ستجد حديثي معك يختلف عن تحقيقات الشرطة المعتادة؛ فأنا أميل إلى أن يكون التحقيق في صورة حوار بين أصدقاء، لذا أرجو أن تحكي لي باختصار عنك، منذ مولدك وحتى عودتك لحضور عزاء والدتك.

ارتسمت الدهشة على وجه مهند، وردَّ قائلًا:

– عفوًا لسؤالي، ولكن هل هذا سيفيد في الوصول لقاتل أمي؟

ردَّ محمود بابتسامة هادئة:

– لقد وعدت أنك ستساعدني، فأرجو أن تدع لي أنا تحديد ما ينفع وما لا ينفع، وعليك فقط بالإجابة عن أسئلتي.

ردَّ مهند باستسلام:

– اتفقنا.

ثم سكت لحظة وأردف:

– أنا الابن الوحيد لوالديَّ، عمري الآن ٣٠ سنة، أمضيت طفولتي وسنوات دراستي حتى أكملت الثانوية العامة في مصر، بعدها سافرت إلى كندا؛ للالتحاق بإحدى كليات الاقتصاد، حصلت على وظيفة بعد تخرجي في إحدى شركات الاستثمار الكبرى هناك، كما حصلت على الجنسية الكندية، متزوج من كندية تعرفت إليها في العام الأخير في الجامعة وكانت زميلة لي، لديَّ منها ٣ أطفال، ولدان وبنت، وأستطيع أن أقول أني أعيش حياة أسرية مستقرة وهادئة بفضل الله.

– هل لك أن تخبرني بصورة أعمق عن علاقتك بوالديك، ولماذا هاجرت وأنت تنتمي لأسرة ثرية، وخاصةً أنك وحيد والديك؟

– أستطيع أن أقول، أنى تمتعت بمراحل طفولة وصبا وشباب مبكر، كانت أكثر من رائعة، أغدق عليَّ أبويَّا بالحنان والتدليل ولكن بالدرجة التي لا تُفسد، واستطاعا أن يخلقا بداخلي شخصية مستقلة غير اعتمادية.

كانت أول محطة في الخلاف مع أمي عندما رغبت في السفر لاستكمال تعليمي في الخارج، ولكن للحق وقف أبى بجانبي وشجعني، وتمكنت بالفعل من السفر، وكان الغرض من السفر التعليم وليس الهجرة، وكنت أعود في أثناء الإجازة الصيفية وبين الفصول الدراسية.

للأسف الشديد، انفصلت أمي عن أبي بعد سفري بنحو ٣ سنوات، وكنت قد تعرفت إلى زوجتي، وبدأت أرتبط بالحياة في كندا، ولمَّا أنهيت دراستي، طلبت مني أمي العودة إلى مصر، ولكني عرضت عليها أن تأتي هي وتعيش في كندا، وخاصة أنها أصبحت تعيش وحيدة بعد انفصالها عن أبي، ولكنها رفضت بصورة قاطعة.

ولأول مرة أكذب عليها، فأخبرتها أنه يتحتم عليَّ أن أقضي هنا سنتي تدريبٍ بعد البكالوريوس، وبالفعل صدقتني.

في خلال السنتين بدأت أحكي لها عن تعارفي بزوجتي، وبعد ذلك أخبرتها أننا تزوجنا، وبالتدريج أخبرتها أني سأقيم في كندا، وكنت أزورها كل عام لمدة شهر وهو شهر أغسطس، ولكن منذ أربع سنوات، أصبحت أزورها كل عامين، وأصطحب أسرتي معي لقضاء الإجازة هنا.

– هل استسلمت أمك بسهولة لإقامتك في كندا؟

– واقع الأمر لم يكن استسلامها سهلًا، ففي البداية حاولت معي بالطرق المباشرة، مثل المشاجرات في كل مكالمة تليفونية، والتهديد بأنها ستتزوج.

ولمَّا فشلت تلك الأساليب، بدأت تحاول الضغط بصورة غير مباشرة، عن طريق حكياتها لي عن انغماسها في الجمعيات الخيرية وعن انشطتها وتبرعاتها لجهات مختلفة، وكنت بالطبع أفهم أنها تريد أن أشعر بالفزع لأن ثروتها ستضيع على تلك الأعمال، وأن الوسيلة الوحيدة للحفاظ على ثروتها، هي عودتي لمصر.

ولكن حقيقة الأمر، كانت أموري في كندا غاية في النجاح والاستقرار، وكنت لا أهتم على الإطلاق بفكرة ثروة أمي، وأعتقد أنها لمست هذا مؤخرًا، فلم تعد تحكي لي عن أنشطتها الخيرية، وهذا باختصار موجز عن حياتي منذ مولدي حتى الآن.

– ولكنك لم تخبرنا كيف عرفت بخبر وفاة أمك؟

– عرفت من الأستاذ سالم، ابن عم والدتي، وهو تقريبًا الوحيد من عائلتها الباقي على تواصل معها بصفة مستمرة، فحجزت فورًا وحضرت إلى مصر أول أمس، واستطعت اللحاق بالعزاء، ولكن للأسف لم ألحق بمراسم الدفن.

– أخبرتنا أنك تأتي إلى مصر كل عامين في شهر أغسطس، فهل كان موعد حضورك في هذا العام أم العام المقبل؟

– كنت سأحضر هذا العام، وتذاكر أسرتي جميعها محجوزة، وأعتقد أن الظروف ستجبرني على الإقامة في مصر، حتى ينجلي موضوع مقتل أمي، وسأبلغ أسرتي أن تحضر في موعدها؛ لقضاء الإجازة معي هنا.

– سأسألك سؤالًا، وأرجو أن تفكر فيه جيدًا قبل أن تجاوب عليه.

– تفضل.

– هل خشيت يومًا على أمك من القتل؟

وعلى الفور، ودون تردد، أجاب مهند بصورة قاطعة:

– بالطبع، بل إني حذرتها مرات ومرات، ولكنها للأسف لم تستمع لي.

– وما سبب خشيتك؟

– ظروف أمي المعيشية، فهي اختارت أن تعيش بمفردها في منطقة شبه معزولة، وجميع معارفها يعلمون بأنها تحتفظ بجواهر ثمينة وأموال داخل المنزل، وهذا ما جعلني أخشى عليها من القتل.

– ظننتك خشيت عليها من القتل بسبب وجود أعداء لها؟

– أمي لم يكن لها أي أعداء.

– وما تحليلك عندما علمت أن القتل لم يكن بغرض السرقة؟

– عقلي يكاد يجن، فأنا أقسم أن أمي لم يكن لها أعداء قط.

– ولكنك بعيد عنها لسنوات طويلة، ولا تعرف ما المستجدات التي دخلت على حياتها.

– صدقني، أنا كنت على تواصل معها بصورة شبه يومية، وكنت تقريبًا أعرف عن حياتها كل شيء، فلم تحكِ لي مرة واحدة عن مشكلة لها مع شخص ما.

– ما رد فعل والدك على وفاة أمك بهذه الطريقة؟

ظهر على مهند بعض الارتباك، وجاءت إجابته بطريقة شبه متلعثمة، وقال:

– أبي بالطبع حزين، وكانت الوفاة مفاجأة له، فلا تنسَ أنها كانت زوجته لمدة عشرين سنة، كما أنها أم ابنه.

لاحظ محمود تأثير السؤال على مهند، فقفز إلى موضوع آخر، وسأله:

– هل قابلت محامي الأسرة وتحدثت معه بخصوص ميراث والدتك؟

– اليوم صباحًا، حضر إليَّ وقدم لي واجب العزاء، وأنا على موعد معه غدًا لبحث أمور التركة.

– هل هو من جاء إليك، أم أنت من طلبته للحضور؟

ردَّ مهند وصوته تغلفه مسحة من التوتر:

– وهل هناك فرق أو أهمية إن كان هو من حضر، أو أنا من طلبته للحضور؟

ابتسم محمود وقال:

– مرة أخرى يا أستاذ مهند تخرج عن اتفاقنا، أعود وأذكرك، عليك أن تترك لي أنا تحديد ما هو مهم، وعليك أنت فقط الإجابة.

سكت مهند للحظات، ثم قال:

– أنا الذي اتصلت به.

ابتسم محمود، وقال وصوته مغلف بالود:

– أشكرك جزيلًا على حسن تعاونك معنا.

– ألن تقوم بمعاينة القيلا؟

– إن شاء الله سنحضر صباحًا في نحو العاشرة؛ لنعاينها، وأرجو أن يكون البواب والشغالة موجودين في نفس التوقيت؛ لأني أرغب في الحديث معهما.

– بالتأكيد، ستجدنا جميعًا في انتظار سيادتك.

قام محمود ومن خلفه أسامة، وصافحا مهند، وغادرا الڤيلا.

في الطريق إلى قسم الشرطة، تكلم أسامة وقال:

– هل وصلت إلى شيء يا أفندم؟

– بالطبع يا أسامة، وجدت مهندًا شخصًا من الممكن أن تراه بسيطًا وواضحًا ولا يجيد اللف والدوران، ومن الممكن أن يكون عكس ذلك.

– عفوًا يا أفندم، أنا لم أقصد أن أسأل عن شخصية مهند، ولكن أقصد هل وصلت لشيء بخصوص قضية القتيلة؟

ابتسم محمود، وتكلم بنبرة الأستاذ الناصح لتلميذه:

– لو استطعتَ يا أسامة، أن تعرف جيدًا شخصية القتيلة، وشخصية الأفراد المحيطين بها، ستعرف بالتأكيد من القاتل.

***

أخرج عمران سيجارة وأشعلها، ونظر إلى زوجته مرزوقة، وتكلم في حدة قائلًا:

– الأستاذ مهند أبلغني أن رجال المباحث سيأتون صباح باكرٍ للتحقيق معنا، وإياكِ أن تغيري كلمة واحدة عما قلناه من قبل.

– ولكن يا عمران كنت أرغب في أن نقول لهم الحقيقة، فأنا أشعر بخوف شديد؛ بسبب ما أخفيناه عنهم.

– يا مجنونة، ما أخفيناه سيكون سبب سعادتنا.

– والله أخشى أن يكون سبب موتنا.

– استمعي إليَّ فقط، وكل شيء سيكون على ما يرام بإذن الله.

***

في مكتبه داخل قسم الشرطة، ألقى أسامة جسده المنهك على سرير، اعتاد أن يستريح عليه في السويعات القليلة التي يستقطعها في اليوم؛ ليرتاح فيها، وأمسك بالموبايل، واتصل بخطيبته راندا، ودار بينهما الحوار التالي:

– أخيرًا تذكرت أن لك خطيبة تسأل عنها.

– أوحشتني جدًّا يا حبيبتي، صدقيني أنا لم أعرف طعم النوم منذ نحو أسبوع، لا تتصوري صعوبة القضية التي نحن بصددها.

– وهل انتهيت منها؟

ردَّ أسامة بنبرة تهكم:

– انتهيت! لقد وصلنا فيها إلى طريق مسدود، فقرر مدير المباحث إسنادها لأحد الضباط المشهود لهم بالذكاء الخارق، وبالفعل بدأت معه منذ المساء،

وكأننا نبدأ من جديد؛ لأن طريقته في التحقيق تختلف عن طريقة أي ضابط مباحث.

– هل تقصد أن العمل معه مزعج؟

– على العكس، فهو رجل شديد الاحترام، ويحب دائمًا العيش في دور المدرس والواعظ، وأنا أمنحه هذه الفرصة.

– وهل تظن أنه قادر على حل القضية سريعًا؟

– الحقيقة، وبالرغم من ذكائه المعروف، لكني أشك هذه المرة أنه سينجح، فأنا أراه يعتمد على أساليبه القديمة، والتي أعتقد أنها لا تصلح لهذه القضية.

– الله يطمئنك، هذا يعني أنني لن أراك أو أسمع صوتك لفترة طويلة قادمة.

– لا، إن شاء الله نتمكن من حل القضية في أسرع وقت، وأكون معك في كل يوم.

– أود فقط أن أذكرك أن غدًا، أقصد اليوم فقد تجاوزنا منتصف الليل، هو عيد ميلادي، وهذا أول عيد ميلاد لي بعد خطوبتنا، فهل ستتغيب عن حضوره؟

– سأحاول أن أحضر لحظة إطفاء الشمع.

ردَّت راندا، وصوتها تكسوه نبرة غضب:

- تحاول!

- صدقيني، سأبذل قصارى جهدي؛ حتى أحضر.

- صوتك يبدو عليه النوم.

- أقسم لك يا حبيبتي أني أتكلم وقد بدأت أفقد الإحساس بنفسي.

- تصبح على خير يا حبيبي.

- وأنتِ من أهله يا حبيبتي.

قبل أن يضع أسامة الموبايل إلى جانبه، كان يغط في سبات عميق.

***

هذه واحدة من أصعب القضايا التي حققت فيها يا ناهد، كان محمود يبدل ملابسه وهو يتكلم مع زوجته، والتي ضحكت؛ لتخفف عنه وقالت:

- كل القضايا التي حققت فيها، كنت تقول هذه العبارة.

- معك حق، وكنت أقول هذا؛ لأن الوزارة لا تكلفني إلا بالقضايا الصعبة، ولكن صدقيني بداخلي إحساس غريب يقول إن هذه القضية هي الأصعب، بل لأول مرة منذ عملت في البحث الجنائي، ينتابني شعور بأني سأفشل في الوصول للجاني.

– فقط اعتمد على الله، وبإذن الله ستتمكن من الوصول له قريبًا.

– بإذن الله.

أرادت ناهد أن تخرج زوجها من حالته النفسية غير الجيدة، والتي بدت على صوته، فقالت:

– حفلة مازن كانت رائعة، والضيوف غادروا عند منتصف الليل تقريبًا.

– وكيف حال مازن؟

– في أسعد حال، ولكنه سألني عن مكافأة التفوق.

– أعطيه مبلغًا محترمًا؛ ليشتري به ما يريد، فهو يستحق.

– هذا سيسعده كثيرًا.

بعد أن تمنى محمود لناهد نوما هانئًا، أمسك بمفكرته الصغيرة، وقرأ ما دوَّنه من قبل بخصوص رسالة مديحة، ثم أمسك القلم، ودوَّن فيها تحت عنوان ملحوظة ما يلي:

"مهند قال إنه لا يهتم بميراث أمه، ولكن هو من بادر واتصل بالمحامي بشأن الميراث".

ترك محمود المفكرة والقلم، واستسلم للنوم.

(٤)

في تمام العاشرة صباحًا، رنَّ العميد محمود جرس باب الڤيلا الداخلي، حيث كان الباب الخارجي مفتوحًا، ففتحت الباب سيدة تبدو في منتصف الأربعينيات، ومن خلفها ظهر مهند، الذي أسرع وتبادل التحية مع محمود وأسامة، ثم قدم السيدة للضابطين على أنها هنية الشغالة، استأذن محمود من مهند أن يكون التحقيق مع هنية الشغالة في مكان مغلق، فاصطحبهم إلى غرفة مكتب توجد في الدور الثاني للڤيلا، وتركهم بعد أن أغلق الباب وانصرف.

بدأ محمود التحقيق مع هنية قائلًا:

- كيف أحوالك يا هنية؟

- الحمد لله يا أفندم.

هل تستطيعين أن تخبريني: ماذا سألتكِ الشرطة بعد مقتل سيدتك، وبماذا أجبتِ؟

فكرت هنية للحظات، ثم قالت:

– لقد سألوني متى حضرت يوم الجريمة؟ ومتى انصرفت؟ وهل جاء أحد غريب إلى المنزل؟ وهل لاحظت أي تغيير على سلوك سيدتي هذا اليوم؟ وأجبتهم أني حضرت في التاسعة صباحًا، وانصرفت في الثانية، بناء على طلب سيدتي، ولم يأتِ أي غريب إلى المنزل، كما أنني لم ألحظ أي تغيير على سيدتي هذا اليوم، وهذا كل ما دار بيني وبين الشرطة.

– عظيم يا هنية، ولكن هل اعتادت سيدتك أن تسمح لكِ بالمغادرة مبكرًا، في حال لديها ارتباطات خارجية؟

– لا، هذه أول مرة.

– منذ متى وأنتِ تعملين هنا يا هنية؟

– منذ أكثر من سنتين.

– إذن كيف تقولين إنه لم يكن هناك تغير في سلوك سيدتك، إذا كنتِ قد عملتِ معها لمدة سنتين، ولأول مرة تسمح لكِ بالمغادرة مبكرًا يوم قتلها!

ارتبكت هنية، وبدأت تتلعثم، ولكن محمود أردف سريعًا وقال:

– أرجو أن تهدئي يا هنية، وتحكي لي أنتِ عما حدث يوم الجريمة، كما حكيتِه لأولادك وزوجك في المنزل، وبالمناسبة، هل أنتِ متزوجة؟

– متزوجة ولي ٣ أولاد؛ بنتان وولد.

– وما أعمارهم؟

– الكبيرة ١٨ سنة، والوسطى ١٦ سنة، أمَّا الولد فهو الصغير، وعمره ١٠ سنوات.

– وهل تهتمين بتعليمهم؟

– بالطبع يا أفندم، والكبيرة ستحصل على دبلوم التجارة هذا العام.

– وما عمل زوجك؟

– فران.

استطاع محمود أن يُهدئ من روع هنية، ثم عاد وكرر سؤاله قائلًا:

– الآن أريدك أن تحكي لي عن يوم الجريمة، كما حكيتِه لأسرتك.

– وصلت هذا اليوم نحو الساعة التاسعة إلّا ربعًا؛ لأن الطرق تكون غير مزدحمة يوم السبت، وفتحت لي سيدتي الباب كعادتها، وهنا قاطعها محمود وقال:

– هل كانت سيدتك معتادة الاستيقاظ مبكرًا، أم أنها تستيقظ عند وصولك؟

– الحقيقة يا أفندم هي كانت تستيقظ كل يوم عند وصولي، وأجهز لها الإفطار كل يوم في الساعة التاسعة والنصف تقريبًا، أمَّا في ذلك اليوم فكان يبدو عليها أنها استيقظت مبكرة، بل إنها كانت قد تناولت إفطارها قبل وصولي.

– هائل، أكملي من فضلك.

– بدأت عملية التنظيف المعتاد، ثم أبلغتني سيدتي في نحو الساعة العاشرة أن عليَّ المغادرة في الثانية ظهرًا؛ لأن لديها ارتباطات خارجية ولا تحتاجني في شيء، والحقيقة فرحت، واتصلت بابنتي الكبرى، وأبلغتها أني سأعود مبكرة، وأتممت عملي، ثم انصرفت في الثانية تمامًا.

– لا أصدق يا هنية أن هذا ما حكيتِه لزوجك وأولادك.

– صدقني يا أفندم، لا يوجد لديَّ أي شيء آخر أحكيه.

– أنا أصدقك يا هنية، ولكن ليس هذا ما أريده، أنا أريد أن تحكي لى ما حكيته لزوجك وأولادك بمجرد سماعك بخبر وفاة سيدتك، أريد أن تتذكري ما الذي قلته لهم بالحرف.

سكتت هنية لحظات، وأخذت تفكر، ثم قالت:

– أول ما سمعت الخبر، لطمت وجهي وقلت، والله كأنها كانت تعرف أنه آخر يوم في عمرها، كانت الفرحة تخرج من عينيها، ولم تراجع على تنظيفي كعادتها، حتى أنها لم تجعلني أنظف الدور العلوي، وقالت لي:

"الغرف نظيفة، وأنا أريد أن أريحك اليوم يا هنية".

وبقيت أصرخ وأبكي، كلما تذكرت عطفها معي في هذا اليوم، وأقسم لك يا أفندم هذا كل ما قلته لأهلي.

ابتسم محمود وقال:

– وأنا أصدقك، ولا أريد أكثر من هذا.

سمح محمود لها بالانصراف، بعد أن طلب منها أن تخبر مهند بأن يرسل عمران، وبعد لحظات دخل عمران، وبدأ محمود التحقيق معه قائلًا:

– كيف حالك يا عمران؟

– بخير يا أفندم والحمد لله.

– منذ متى وأنت تعمل هنا؟

– ٤ سنين تقريبًا يا أفندم.

– وهل كنت سعيدًا في العمل مع المرحومة؟

– سعيدًا جدًّا يا أفندم.

– لماذا؟

فاجأ السؤال عمران، فارتبك وردَّ قائلًا:

– كانت أمورنا تسير على خير، ولم تكن هناك مشكلات، والسيدة مديحة كانت تعاملنا بعطف واحترام.

– وهل راتبك يكفيك؟

– رضا والحمد لله يا أفندم.

– هل لديك أولاد؟

– حسن عنده ٦ سنوات، وحسين ٤ سنوات.

– ما الذي تحلم به لطفليك يا عمران؟

ضحك عمران وقال:

– أحلم لهما بكل شيء جميل.

– أقصد عندما تجلس مع زوجتك، ألا تتحدث معها عن شيء تحلم أن تفعله لولديك؟

أدار عمران وجهه، ونظر إلى سقف الحجرة، وقال كمن يحدث نفسه:

– أتمنى أعود إلى الفيوم بلدي، وأشتري قطعة أرض، وأبني في وسطها بيتًا، ويكبر أولادي ويفتخرون أن أباهم لديه بيت وأرض.

– إن شاء الله تحقق حلمك يا عمران، والآن أريد أن أعرف: ماذا حدث يوم الجريمة؟

– كما قلت من قبل للشرطة، أنا تركت الڤيلا نحو الساعة ٢، بناء على تعليمات الست مديحة، وأخذت أسرتي وذهبت بهم إلى حديقة عامة، هنا في القاهرة الجديدة، وتناولنا طعامنا هناك، وظل الأولاد يلعبون، حتى عدنا قبل الحادية عشرة بقليل.

– هل يمكنك أن تحكي لي كيف اكتشفت الجثة؟

أعاد عمران، ما سبق أن قاله بالنص في محضر تحقيقات الشرطة السابق، وبعد أن انتهى، سأله محمود:

– هل تريد أن تخبرني بأي شيء آخر؟

– لقد قلت لسيادتك كل ما أعرف.

وإذا بوجه محمود يتغير فجأة، وبنظرة حادة، وصوت أكثر حدة، يقول:

– لا يا عمران، أنت لم تقل كل شيء تعرفه.

فارتبك عمران، وارتعدت أوصاله، وقال:

- أقسم لك يا أفندم، أني قلت كل ما أعرفه.

ردَّ محمود بنفس النظرة الحادة، والصوت الأكثر حدة، وقال:

- يمكنك أن تنصرف، ولكن عليك أن تعلم أننا نواجه جريمة قتل، والقاتل ما زال حُرًّا، وإخفاؤك لأي معلومات، لن يبعدنا عن القاتل فحسب، بل سيعرض حياتك أنت للخطر.

***

دخل مهند غرفة المكتب الذي يوجد فيها الضابطان، واستأذن منهما في الانصراف؛ لارتباطه بموعد مع المحامي، وأبلغهما أنه أمر الشغالة أن تلازمهما، وتكون تحت أمرهما في أي طلب في أثناء تفحصهما للڤيلا، لكن محمود أخبره أنه سيؤجل معاينة الڤيلا لوقت لاحق سيخبره به فيما بعد، ثم انصرفا الضابطان بعد أن تبادلا التحية مع مهند، ولَّما استقلا السيارة، طلب محمود من أسامة أن يسير بالسيارة في الشارع الموجود به الڤيلا؛ حتى يقوم بمعاينة خارجية لموقع الڤيلا، وبعد أن دار أسامة دورتين، توجه إلى قسم الشرطة.

***

عاد عمران إلى حجرته، بعد أن أنهى العميد محمود التحقيق معه، وكانت أوصاله ترتعد، فارتعبت زوجته من منظره، وسألته:

- ما الذي حدث؟

- هذا الضابط الكبير، أعتقد أنه يشك في.

- قلت لك يجب أن نخبر الشرطة بكل شيء.

نهرها عمران، وتكلم بصوت حادٍّ قائلًا:

- لن أفعل، هذه فرصتنا الوحيدة في الحياة، ولن تأتي لنا مرة أخرى، وسأبدأ فورًا في تنفيذ خطتي قبل أن يكتشف الضابط أي شيء.

- وماذا لو انكشف الأمر؟

- لن ينكشف شيئًا، المهم فقط أن تفعلي ما أقوله لك بالحرف، ومرة أخرى إذا سألتكِ الشرطة، فقولي نفس ما قلتِه المرة السابقة، ولا تغيري حرفًا واحدًا.

- ربنا يستر.

(٥)

في مكتب أسامة داخل القسم، جلس محمود على كرسي أسامة، وطلب منه إحضارَ كشفٍ بأسماء كل مَن تم التحقيق معه، فأحضر أسامة كشفًا، وردت فيه الأسماء التالية:

١- عمران (البواب).

٢- مرزوقة (زوجة البواب).

٣- هنية (الشغالة).

٤- مهند (ابن القتيلة).

٥- سالم (ابن عم القتيلة).

٦- الدكتور ياسين وأسرته (جار القتيلة).

٧- مدام نادية (صديقة القتيلة).

تفحص محمود الأسماء، ثم سأل:

- مَن الدكتور ياسين؟

- صاحب ڤيلا تفصلها عن ڤيلا القتيلة ثلاث ڤيلات، وهما الڤيلتان الوحيدتان المأهولتان بالسكان في الشارع، أمَّا باقي الڤيلات فهي لا تزال تحت الإنشاء، وهو في الستين من عمره، يعمل استشاري أمراض صدرية ومشهود له بحسن السمعة، وهو فوق مستوى الشبهات، يعيش في ڤيلته مع أسرته المكونة من زوجته وابنتيه، الكبرى تبلغ من العمر ٢٤ عامًا وتعمل محاسبة في بنك استثماري، أمَّا الصغرى فعمرها ١٩ عامًا، ولا تزال تدرس في الجامعة الأمريكية، ولم تكن إفادتهم في القضية ذات أهمية؛ حيث إنهم لم يسمعوا أو يروا أي شيء غريب في هذا اليوم، بالإضافة أن علاقتهم بالقتيلة علاقة سطحية، ويصفونها بعلاقة حسن الجوار.

- ومَن مدام نادية؟

- تستطيع أن تقول إنها الصديقة الوحيدة للقتيلة، كما أنها تشاركها في الأنشطة الخيرية كافة، وهي متزوجة برجل أعمال شهير صاحب مصانع للمنسوجات الجلدية وذي سمعة محترمة، وأيضًا لم نخرج منها بشيء مفيد، حيث كانت في حالة شبه انهيار نفسي.

- وماذا عن سالم ابن عم القتيلة؟

– هو رجل بسيط، لم يتزوج ويعيش وحيدًا في حي الهرم، وكان على تواصل دائم مع القتيلة، فهو الوحيد من عائلتها الذي لا يزال على صلة دائمة بها، وهو يعمل محاسبًا في الهيئة العامة للبريد.

عندما نطق أسامة بمكان عمل سالم، قفزت فجأة إلى ذهن محمود رسالة مديحة، وسأل نفسه إن كان لسالم دور في إرسالها، فقد وصلت إليه عن طريق البريد، ولكنه عاد من شروده سريعًا؛ حتى لا يلحظ أسامة شيئًا، وقال:

– أصدر أوامرك يا أسامة لمعاونيك، بترتيب موعد مع سالم، ونادية، اليوم مساءً، في منزل كل منهما.

ثم سكت قليلًا وقال:

– ألم تحقق مع طليق القتيلة؟

– لا يا أفندم.

لم يعلق محمود، ونظر في ساعته فوجدها تقترب من الثانية، فدعا أسامة للخروج لتناول الغداء، وداخل أحد مطاعم التجمع الخامس، اختار الضابطان طاولة في ركن هادئ؛ حتى يتمكنا من الحديث دون إزعاج من أحد، وفي أثناء تناولهما الطعام، تكلم أسامة قائلًا:

– هل لي يا أفندم أن أسألك عن بعض الأشياء التي حدثت، ولم أفهمها خلال التحقيق؟

– بالطبع يا أسامة، نحن شركاء في القضية، وعليك بالاستفسار عن أي شيء لا تفهمه؛ حتى تشاركني في الوصول للجاني.

– العفو يا أفندم، أنت الأستاذ ونحن نتعلم منك.

ابتسم محمود وقال:

– أشكرك على المجاملة، ولكن دعك من مسألة الأستاذ والتلميذ، وصدقني نحن شركاء، ولن أتمكن من حل هذه القضية دون مساعدتك، والآن تفضل اسأل ما شئت.

– دعني أبدأ من أمس، لماذا كنت تصمم على أن تعرف، إن كان مهند هو من اتصل بالمحامي، أم أن المحامي هو من بادر بالاتصال؟

– لقد أخبرنا مهند أنه لا يهتم بميراث أمه، ثم يأتي ويتصل بالمحامي بمجرد الانتهاء من مراسم العزاء، أليس هذا غريبًا؟!

– أليس من الجائز أنه يريد أن ينهي أمور الميراث سريعًا؛ حتى يعود إلى كندا؟

– كان هذا جائزًا لو لم يذكر لنا أن أسرته ستأتي في أغسطس وتقضي الإجازة هنا، أي إنه سيقيم في مصر نحو شهرين تقريبًا.

– وما دلالة هذا التصرف؟

– إمَّا أنه كذب عندما قال إنه لا يهتم بتركة أمه؛ لأن أحواله المادية مستقرة، وإمَّا أنه يريد هذا المال بصورة عاجلة لشخص ما.

ثم سكت لحظة وأردف:

– أبوه مثلًا.

– أمر آخر لم أفهمه، وهو إصرار سيادتك على أن تحكي لنا هنية الأحداث، بنفس الطريقة التي حكت بها لزوجها.

ضحك محمود وقال:

– اعلم يا أسامة أني لم أستفد من شهادة هنية إلّا بالجزء الذي حكته لي كما حكته لزوجها، لاحظ أنها في هذا الجزء أخبرتنا بأمرين غاية في الأهمية، أولهما، حالة الفرحة التي كانت عليها القتيلة، وثانيهما، أن القتيلة منعتها من الصعود إلى الدور العلوي للتنظيف، وكلا الأمرين لم تذكرهما عندما تكلمت بالطريقة الرسمية.

– وهل لهذين الأمرين دلالة عند سيادتك؟

– بخصوص فرحتها لا أعرف يقينًا سببها الآن، أمَّا بخصوص منعها من الصعود للدور العلوي، فمن الجائز أن القتيلة كانت تخفي شيئًا، أو ربما كانت تخفي شخصًا، ولا تنسَ أن القتيلة قد طلبت من الشغالة والبواب المغادرة في

الساعة الثانية بدعوى أن لديها ارتباطات خارجية، ولكنها وُجِدَت مقتولة في الڤيلا، أي إنها لم تغادرها.

– أخيرًا يا أفندم، ما سبب يقينك من أن عمران يخفي شيئًا يعرفه؟

– عندما وجهت أسئلتي لعمران، كرر نفس الأجوبة التي جاوبها أمامكم بالحرف الواحد، وهذا لا يدل على الصدق، وإنما يدل على أنه يحفظ كلامًا بعينه ويريد أن يكرره، أمَّا لو كان صادقًا، لجاءت أجوبته تحمل نفس المضمون ولكن بكلمات مختلفة.

بالإضافة إلى أمر غاية في الأهمية، وهو تركيبته الشخصية، فعندما سألته عن أحلامه لأولاده، وجدته رجلًا لديه طموحات أكبر بكثير من إمكاناته، وهذه الشخصية تكون خطرًا على صاحبها.

نظر أسامة مليًّا إلى محمود وقال:

– صدقني يا أفندم، سمعت كثيرًا عن ذكاء سيادتك، وشاركتك منذ نحو خمس سنوات في إحدى القضايا، وللأسف لم يحالفني الحظ لأن أجلس وأتكلم معك كما هو الآن، ولكن الحقيقة أن كل ما يقال عنك أقل من الحقيقة بكثير.

– لا داعي للمجاملة يا أسامة، كل ما في الأمر هو تراكم خبرات حياتية اكتسبتها على مدار سنوات، وفي النهاية كل شيء إنما هو توفيق من الله.

رنَّ جرس تليفون أسامة، وأبلغه معاونه أنه تم ترتيب موعد مع سالم في الخامسة، ومع نادية في السابعة، وبدوره أبلغ أسامة محمود بالأخبار، وكان الضابطان يتناولان الشاي بعد الغداء، عندما تكلم محمود فجأة، وقال متسائلًا:

- هل كانت القتيلة تقود سيارتها بمفردها أم كان لها سائق؟

- كانت معتادة على قيادة السيارة بنفسها، إلّا أنها منذ نحو عامين، أحضرت سائقًا خاصًّا، ولكنه تركها منذ نحو ٣ شهور.

- ولماذا تركها؟

- لا أحد يعرف.

- وهل تعرف اسمه؟

فكر أسامة قليلًا وقال:

- صابر عبد الفتاح.

(٦)

عاد صابر إلى منزله وهو أكثر هدوءًا، بعد أن أدى واجب العزاء، وبقي حتى منتصف الليل، يقف على كورنيش النيل ويحملق في مياهه، فتح باب شقته البسيطة الكائنة في حي العباسية، ودخل حجرة نوم ابنتيه، فوجدهما نائمتين، فاطمأن وأغلق عليهما الباب، ثم توجه إلى غرفة نومه، ووقف أمام برواز يحمل صورة زوجته معلق على الحائط، وعلى جانب البرواز عُلقت شريطة سوداء، وظل ينظر إليها، وبدأت دموعه في التساقط على خديه، وخاطبها قائلًا:

– ارتاحي يا أمينة في قبرك، لقد جاء قصاص الله العادل سريعًا، لم يَمُرّ على وفاتك يا حبيبتي شهرين إلّا وجاء قصاصك، لكن أرجوكِ أن تسامحيني على ما فعلته معها، أقسم لكِ أني لم أذق طعم النوم منذ وفاتك، وكانت صورتها لا تفارقني، وتحولت إلى كابوس لا أستطيع أن أتخلص منه، قد تلوميني على ابنتينا إن انكشف أمري، لكني أثق برحمة الله ورضاه عنكِ، فلن يجعلكِ تخشين عليهما وأنتِ في قبركِ.

ثم ذهب بكامل ملابسه، ومدد على فراشه، ونام ودموعه لم تجف على خديه.

(٧)

بعد كلمات العزاء الواجبة، بدأ محمود حديثه مع سالم قائلًا:

– علمت أنك الوحيد تقريبًا من عائلة المرحومة التي تربطك بها صلة قوية، فهل هناك أى أقارب من ناحية والدتها على علاقة بها مثلك؟

– لا، فوالدتها كان لها شقيقان يكبرانها في السن، وتوفيا منذ فترة، أمَّا ذريتهما فتربطهما بالمرحومة علاقات سطحية.

– وكيف عرفت بخبر وفاتها؟

– أبلغني عمران البواب، فقد كان يحتفظ برقم تليفوني، حيث كثيرًا ما كان يتصل بي؛ ليبلغني برسالة من المرحومة عندما تكون مشغولة ولا تستطيع أن تحدثني بنفسها.

– ومتى أبلغك؟

– الحادية عشرة ليلًا تقريبًا.

– وعندما أبلغك بخبر وفاتها، هل قال لك إنها ماتت، أم قال إنها قُتلت؟

فكر سالم للحظات وقال:

– أظنّ أنه قال ماتت.

ردَّ محمود بلهجة حازمة وقال:

– أرجوك أن تتجنب الظنّ، وعليك أن تتذكر جيدا ماذا قال لك بالضبط؟

فكرَّ سالم مرة أخرى قبل أن يردَّ وقال:

– لقد صرخ في التليفون قائلًا: "الحقني يا أستاذ سالم، الست مديحة قُتلت".

– وماذا كان رد فعلك عند سماعك الخبر؟

لم يردّ سالم سريعًا، ولكنه تمهَّل قبل أن يقول:

– صرخت فيه قائلًا: "ماذا تقول؟ مستحيل"، ولكنه كرر ما قاله من قبل وأغلق التليفون، فقمت على الفور، وتوجهتُ إلى الڤيلا، وكنت في حالة

ذهول غير مصدق لكلام عمران، حتى وصلت هناك وشاهدتها بنفسي، فانتابتني حالة إغماء، وكان الرائد أسامة هناك، وهو من ساعدني على استعادة الوعي.

أيَّد أسامة أقوال سالم، واستطرد محمود أسئلته قائلًا:

– هل توقعت يومًا أن تموت السيدة مديحة مقتولة؟

أجاب سالم دون تردد:

– لم أتوقع قط هذه الميتة لها.

– ألم تخشَ عليها من إقامتها بمفردها في منطقة شبه معزولة، وهي سيدة معروفة بثرائها؟

– كنت مطمئنًّا بسبب وجود عمران معها، فهو معها منذ أكثر من أربعة أعوام، كما أنه شخص يُعتمد عليه.

– متى آخر مرة رأيت فيها القتيلة؟

– قبل الوفاة بأسبوع.

– ومتى كانت آخر مرة اتصلت بها؟

– هي من اتصلت بي ليلة الوفاة.

– وما سبب اتصالها؟

بدا الارتباك على وجه سالم، ولكنه حاول أن يخفيه وقال:

– لا شيء محدد، اتصلت للسؤال عليَّ ليس أكثر.

– هل أنت متزوج؟

– لا، أنا لم أتزوج طوال حياتي.

اعتدل محمود في جلسته، ورسم على وجهه ابتسامة وقال:

– ألم تفكر يومًا أن ترتبط بابنة عمك؟

وعلى الفور ردَّ سالم:

– لا، لا، لم أفكر مطلقًا، أنا كنت أعتبرها شقيقتي.

– هل فكرت مَن له مصلحة في موتها؟

– لا أعرف، فلن يستفيد أحد بموتها.

– هل لديك رأي في ما هو الدافع من وراء قتلها، خاصة بعد أن اتضح أن السرقة لم تكن هي الدافع؟

ردَّ سالم بنبرة عصبية:

– لا أعرف.

– هل من الممكن أن تكون الكراهية؟

ردَّ سالم دون أن يفكر:

– مَن يعرف مديحة ويتعامل معها، لا يمكن أن يكرهها.

عند هذه الإجابة، وقف محمود، وشكر سالم، وانصرف ومعه أسامة، متوجهين لمقابلة نادية.

***

فتحت شغالة فلبينية باب الڤيلا الداخلي، ورحبت بالضابطين، وأجلستهما في صالون فخم موجود داخل بهو الڤيلا، وأخبرتهما أن سيدتها ستأتي حالًا، وسألتهما فيما يودان أن يشرباه، فطلبا فنجانين من القهوة التركية.

لم تمضِ دقائق قليلة حتى حضرت السيدة نادية، فتبادلا معها التحية، وبدأ محمود الكلام قائلًا:

– بدايةً أعتذر عن هذا الموعد المفاجئ، ولكن واقع الأمر أني توليت القضية بالأمس فقط، وأنا أسابق الزمن للوصول إلى الجاني، فكل دقيقة لها قيمتها.

– تحت أمرك يا أفندم في أي وقت.

– كيف بدأت معرفتكِ بالمرحومة؟

سقطت دمعتان من عيني نادية، وتلعثمت قليلًا، ثم قالت:

– من أربع سنوات تقريبًا، تعرفت إليها في إحدى الجمعيات الخيرية التي ترعى مرضى السرطان، ومنذ اللحظة الأولى التي التقيت بها، شعرت أنها سيدة نقية لأبعد حد، ونشأت بيننا صداقة تفوق العلاقة فيها علاقة الأخوات، وأصبحت أنا لها الأخت التي لم تلدها أمها، وهي كانت لي كذلك.

– وكيف عرفتِ بنبأ وفاتها؟

– حاولت الاتصال بها يوم الأحد (ثاني يوم وفاتها)؛ لأني اعتدت أن أكلمها كل يوم صباحًا، ولكنها لم تردّ حتى الثانية عشرة ظهرًا، فاتصلت بعمران البواب، فأنا معتادة أن أتصل به عندما لا تردّ عليَّ مديحة لأي سبب من الأسباب، وهو من أبلغني بوفاتها.

– وكيف استقبلتِ الخبر؟

– هل تصدقني لو قلت لك: إني حتى الآن لا أصدق ما حدث.

– أصدقكِ، ولكن أريد أن أعرف بالتفصيل كيف استقبلتِ الخبر؟

– ستندهش إن قلت لك إني تكلمت بهدوء مع عمران، واتهمته بالجنون، بل عنفته لأنه جرؤ أن يقول على سيدته هذا الكلام، ولكنه بكى، وكرر ما قاله، وبعدها أغلق التليفون، فانتابتني لحظتها نوبة هيستيرية، لم ينجدني منها سوى زوجي، الذي استدعى طبيبًا على الفور، جاء وأعطاني حقنة منومة،

وعندما استيقظت في المساء، اصطحبني زوجي إلى ڤيلا مديحة، وهناك فقط صدقتُ الخبر.

– هل توقعتِ لها هذا، في أي وقت من الأوقات؟

– حذرتُها في السابق مرارًا من إقامتها في منطقة شبه معزولة، وخاصة مع انتشار جرائم القتل والسرقة في هذه الأيام، ولكن مع طول فترة إقامتها هناك، وعدم حدوث أي حادث لها، نسيتُ تمامًا قلقي عليها.

– هل علمتِ أن القتل لم يكن بدافع السرقة؟

– نعم.

– وما رأيكِ؟

– أكاد أشعر أن عقلي سيطير بسبب هذا الأمر، صدقني لا يوجد مخلوق يكره مديحة، فالسبب الوحيد لقتلها لا بد أن يكون السرقة.

– هل كانت تشعرُ بالخوف في الآونة الأخيرة؟

– على العكس تمامًا، كانت تعيش أجمل أيام حياتها.

– هل حدثتِها يوم وفاتها؟

– بالتأكيد، فنحن على مدار أربع سنوات، لم يَمُر يوم دون أن يكون بيننا اتصال واحد على الأقل.

– ومتى اتصلتِ بها؟

– هي من اتصلت بي يوم وفاتها، وكان غريبًا منها لأنها كلمتني في الثامنة صباحًا، فهي لا تستيقظ قبل التاسعة، ونتحدث عادة في العاشرة، ولكنها تعلم أني أستيقظ مبكرًا جدًّا.

– أو لم تسأليها عن سبب اتصالها المبكر، أو بمعنى آخر سبب استيقاظها المبكر هذا اليوم؟

– بالطبع سألتها.

– وبماذا أجابت؟

– ردَّت بأنها تريد أن تبلغني خبرًا سعيدًا، وأن أكون أنا أول مَن يعلم.

– وما هذا الخبر؟

– كانت ستتزوج في هذا اليوم.

***

رافقت نادية الضابطين إلى باب الڤيلا، وبعد أن ودعتهما عادت إلى حجرتها في الطابق العلوي، فوجدت زوجها عمر جالسًا على السرير يدخن سيجارة، والتوتر يكسو وجهه، وبمجرد أن رآها بادرها قائلًا:

– هل غادرا؟

نظرت إليه نظرة يكسوها الاحتقار، وقالت:

– نعم.

سألها عمر وصوته مغلف بالخوف:

– هل شكّا في أي شيء؟

وبنفس النظرة ردَّت:

– لا، لم يشكّا.

عندها بدأ الهدوء يعلو وجه "عمر"، وترك السرير، وذهب لزوجته التي كانت تجلس على كرسي التسريحة تزيل مكياجها، وحاول أن يضع قبلة على رأسها، فأزاحته بعنف، ووقفت وواجهته بنظرة حادة قائلة:

– لا تعتقد أني أقف بجانبك من أجلك، ولكن من أجل أولادي وسمعتي، ولكن عليك أن تتأكد أني سأظل أحتقرك طول عمري.

ردَّ "عمر" في توسل قائلًا:

– أنا أعلم أني أخطأتُ.

فقاطعته نادية بحدة، وقالت:

- بل قُل إنك أجرمتَ.

فردَّ مستسلمًا:

- حقًّا أجرمت، ولكن هي السبب، صدقيني هي السبب.

فنظرت إليه بحدة، وقالت:

- كلٌّ منكما ألعنُ من الآخر، ولكن هي نالت ما تستحق، ولكنك لم تنل ما تستحقه بعد، ثم سكتت لحظات وتكلمت وكأنها تحدث نفسها قائلة: لا أصدق أن زوجي كان سيتزوج بأعز صديقة لي.. مديحة.

(٨)

رحَّب الأستاذ خالد المحامي بمهند أشد ترحيب، فمكتب المحاماة هذا هو من يتعامل مع أسرة والدة مهند منذ ما يزيد عن ٤٠ سنة، فقد بدأت العلاقة بين والد مديحة، ووالد خالد الأستاذ عبد الحليم المحامي، ثم امتدت مع ابنه خالد بعد وفاته.

في البداية اعتذر مهند عن التأخير، وتبادل مع خالد بعض كلمات المجاملة المعتادة، ثم قال:

– أتمنى أن تنهي لي موضوع التركة في أسرع وقت ممكن، فأنت تعلم أني مقيم في كندا، وأنا في عجلة من أمري.

– أنا تحت أمرك، ولكن لا بد أن أعرف أولًا، ما هو تخطيطك لأملاك المرحومة؟

– أنا أريد أن أبيع كل الأصول، أو بمعنى آخر، أريد تحويل كل التركة إلى أموال سائلة.

– ولكن عملية البيع تستلزم بعض الوقت؛ حتى لا يتم البيع بثمن بخس.

– لا يهمني الثمن بقدر ما تهمني السرعة في البيع، وأنا أعتمد في هذا الأمر عليك.

– ألهذه الدرجة تحتاج إلى المال؟

– لا، ولكني في عجلة من أمري، وأريد أن أعود إلى كندا وليس لي متعلقات هنا.

– وماذا عن الڤيلا؟ هل تنوي بيعها هي أيضًا؟

– لا، سأُبقي عليها؛ حتى يكون لي مكان أقيم فيه عندما أزور مصر أنا أو أولادي.

– وأنا أوافقك الرأي.

ثم قام وفتح خزينة في مكتبه، وأخرج منها ظرفًا، أحضره وجلس على مقعده مرة أخرى، ونظر إلى مهند قائلًا:

– هذا الظرف تركت به والدتك وصيتها.

– وما فحوى الوصية؟

– صدقني لا أعرف، ولكن سأفتحها أمامك الآن ونعرف معًا.

ثم فتح الظرف، وأخرج الوصية التي كتبت بخط وتوقيع مديحة، وجاء فيها:

"أوصي ابني الوحيد مهندًا، أن يتبرع بالعقد الذي ورثته عن أمي، إلى جمعية أصدقاء مرضى السرطان، والتي أشرف بأني عضو فيها، وأنا أعلم أن قيمة العقد تتجاوز ١٠ ملايين جنيه، ولكن أرجوه أن يعمل بوصيتي؛ فمرضى السرطان يستحقون أكثر وأكثر، وللعلم، احتفظت بالعقد في خزينة بأحد البنوك، وبيانات البنك وبيانات الخزينة ومكان مفتاحها، وضعتها في ورقة في نفس الظرف الموجودة فيه الوصية".

وبالفعل وجد خالد ورقة أخرى داخل الظرف، أخرجها ووجد بها ما ذكرته مديحة، فنظر إلى مهند وسأله:

- والآن ماذا أنت فاعل؟

- أخبرني أولًا، كم تقدر تركة أمي؟

- بخصوص الأموال السائلة في البنوك لا علم لي بها، أمَّا بخصوص الأصول الثابتة فلديَّ حصر شامل بها، وتقريبًا وبعد تجنيب القيلا التي تقيم فيها، فإن تركة أمك قد تصل إلى ما يقرب من ١٥ مليون جنيه.

- إذن سأنفذ وصيتها، وأتبرع بالعقد أيًّا كان ثمنه، المهم لديَّ أن تسرع في عملية تسييل التركة.

- سأبدأ فورًا في إجراءات إعلام الوراثة؛ حتى ننهي كل شيء في أسرع وقت.

***

(٩)

الذهول هو الشعور الوحيد الذي انتاب العميد محمود، عندما أخبرته نادية، أن مديحة كانت ستتزوج يوم قتلها، حتى أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة بعدها، بل لم تستطع رباطة جأشه أن تداري ردة فعله تلك اللحظة، كل ما فعله أنه قام وأنهى المقابلة.

طوال الطريق إلى مكتبه في مديرية الأمن لم ينطق بكلمة مع أسامة، حتى عندما سأله عن سبب الدهشة التي انتابته من خبر زواج مديحة، لم يُعلق، وكان كل ما قاله، أنه يحتاج لأن يختلي بنفسه؛ لترتيب بعض الأمور في عقله.

جلس محمود على كرسي مكتبه، ودفن رأسه بين كفيه، وثبت عينيه على رسالة مديحة، كان يشعر أن مخه يكاد يتوقف، بل شعر أنه توقف فعلًا، ولم يعد يفهم شيئًا مما يحدث.

قرر بينه وبين نفسه أن عليه أن يهدأ تمامًا؛ حتى يستطيع أن يفكر، فأغمض عينيه، وعاد برأسه إلى الوراء، وأخذ يتنفس بعمق، بعد ذلك، شعر أنه بدأ يعود إلى أرض الواقع بعد أن غاب عنها لفترة من الوقت.

طلب فنجانًا من القهوة، وأخذ يقرأ رسالة مديحة أكثر من مرة، ثم فتح مفكرته وعاد ليقرأ الأسئلة الثلاثة التي وضعها بشأن تلك الرسالة، ولكنه وجد عينيه لا تبرحان السؤال الثاني وكان: "ما السبب الذي دفع مديحة لتدخل معه في تحدٍّ وهو لا يعرفها؟"

وهمس لنفسه قائلًا: لو أجبت عن هذا السؤال فسيتضح كل شيء، ثم بدأ يدوّن أهم الملاحظات التي خرج بها اليوم من تحقيقاته، فكتب:

١- سبب فرحة مديحة التي تكلمت عنها هنية، هي زواجها في هذا اليوم كما قالت نادية.

٢- سالم قال بالحرف: "من يعرف مديحة ويتعامل معها، لا يمكن أن يكرهها".

ثم فكر محمود برهة وقال في نفسه: وماذا لو صُغنا العبارة بطريقة أخرى، كأن تكون:

"من يعرف مديحة ويتعامل معها، لا بد أن يحبها".

***

فتحت راندا الباب، وكانت الساعة قد قاربت على الحادية عشرة ليلًا، فوجدت أسامة يقف ويحمل في يده شنطة هدايا، ناولها لها، وقال:

- كل سنة وأنتِ طيبة يا حبيبتي، آسف على تأخيري، صدقيني حاولت بكل جهدي أن أكون معكِ لحظة إطفاء الشمع، لكن لم أستطع.

ردَّت راندا بنبرة صوت ممزوجة بالشجن واليأس:

– وأنت طيب، تفضل، واصطحبته إلى داخل الشقة، فتبادل التحية مع كل أفراد أسرتها، ولكنه لاحظ أن الوجوم يخيم على وجوههم جميعًا، ثم طلبت منه راندا أن يذهب معها للجلوس في بلكونة المنزل؛ لأنها تريد أن تحدثه على انفراد.

بدأت حديثها وقالت:

– على قدر صعوبة ما سأقوله، لكن أقسم لك أنه مفيد لكل منا، فأنا ارتبطت بك منذ نحو ٦ شهور، ومثل كل الفتيات، كنت أحلم أن أعيش فترة خطوبة كالتي تحلم بها أي فتاة، فهي أجمل فترة في حياة البنات.

لكن للأسف، وأنا لا أحملك الذنب في هذا، عشت معك أسوأ فترة خطوبة، بل أفضل أن أقول إني لم أعش معك أي خطوبة، كنت أراك مرات معدودة، وحتى المكالمات التليفونية بيننا، كانت أغلبها قبل نومك مباشرة، وكنت تكلمني وأنت شبه نائم.

ومرة أخرى أعود وأكرر، إني لا أحملك الذنب في هذا، فهي طبيعة عملك وأنا أقدرها جدًّا، ولكن سامحني يا أسامة، فلم أعد أستطيع التحمل أكثر من هذا، وصدقني، سأظل أذكرك بكل احترام وتقدير ومعزة، ثم توقفت لحظات؛ لتلتقط أنفاسها المتلاحقة، ولتجفف دمعة كانت قد سقطت من

عينيها، ثم مدَّت يدها والتقطت شنطة كانت موجودة بجوار الكرسي الذي تجلس عليه، وناولتها له قائلة:

- هذه هي الشبكة وكل الهدايا الذهبية التي أحضرتها لى.

ترك أسامة مقعده، وتكلم واقفًا، وقال بهدوء:

- حتى تظل الذكرى بيننا طيبة، فأرجو أن تقبلي مني الشبكة والهدايا، ولتعتبريها هدية من صديق لصديقته.

ردَّت راندا قائلة:

- لا يمكن أن أقبل الشبكة، فهي تحمل معاني كثيرةً للطرفين، ولكن سأقبل باقي الهدايا؛ لأثبت لك أنك ستظل بالنسبة لي صديقًا محترمًا، أعتز دائمًا أني عرفته يومًا ما.

رضخ أسامة لرغبة راندا، وأخذ علبة الشبكة، وانصرف دون أن يُعقِّب.

***

في طريقه إلى منزله، اتصل محمود بأسامة، ودار بينهما الحوار التالي:

- أريد مقابلة المدعو صابر عبد الفتاح، الساعة العاشرة صباحًا في القسم عندك، ثم نذهب في الحادية عشرة لمعاينة الڤيلا، وأيضًا أبلغ مهندًا أني أريده لأطرح عليه بعض الأسئلة.

ردَّ أسامة بصوت متجهمًا:

- أمرك يا أفندم.

استغرب محمود لنبرة أسامة، فسأله:

- ماذا بك؟

- لا شيء يا أفندم.

- يبدو على صوتك أن هناك أمرًا ما، أخبرني: ماذا حدث؟

ردَّ أسامة بصوت مهموم:

- خطيبتي أنهت الخطوبة معي منذ لحظات، وأعادت لي الشبكة، وبررت تصرفها بأنها لن تستطيع أن تواصل معي في ظل ظروف عملي هذه.

ردَّ محمود بصوت عطوف:

- الزواج يا بني قسمة ونصيب، وتأكد أنك ستجد يومًا من تقدرك وتقدر ظروف عملك، فلا تنسَ أننا جميعًا نمتهن نفس المهنة، وجميعنا تزوج وأنجب، كل ما في الأمر أن النصيب لم يأتِ بعد، وزوجة ضابط المباحث هي سيدة من نوعية خاصة ونادرة، وأنت لم تصادفها بعد.

سكت للحظة ثم أردف:

- بالمناسبة أهي أول خطوبة لك؟

تحولت نبرة صوت أسامة من الحزن إلى التهكم وقال:

– بل السادسة يا أفندم.

ضحك محمود وقال:

– يا رجل، ألم تُهوّن عليك خبراتك السابقة!

ثم عاد إلى نبرته الجدية وقال:

– اذهب ونم الآن، وادعُ الله أن يبدلك بخير منها.

– أشكرك يا أفندم على كلامك المريح للنفس، وسأبلغ النقيب أيمن فورًا بأوامر سيادتك.

– أريد أيضًا بيانًا بالمكالمات التليفونية الموجودة على تليفون القتيلة خلال آخر أسبوع في حياتها، وأي رسائل موجودة عليه.

– للأسف يا أفندم لم يتم العثور على تليفونها، ولكننا سنستعلم من شركة الاتصالات، عن الأرقام التي اتصلت برقم تليفونها كافة، وسيكون البيان جاهزًا في أسرع وقت.

– تصبح على خير، وسأكون في مكتبك بالقسم في تمام العاشرة.

– وأنت من أهله يا أفندم.

(١٠)

جلس صابر أمام العميد محمود داخل قسم الشرطة، وكانت تبدو على يديه رعشة بسيطة، بالإضافة إلى حركة عينيه الزائغتين التي لم تهدأ، وبدأ محمود التحقيق قائلًا:

- لماذا أنت متوتر يا صابر؟

- لأنها أول مرة أدخل قسم شرطة، ويتم التحقيق معي.

- وأنا أيضًا أكره كلمة تحقيق، اعتبر يا رجل أننا نجري حوارًا، نهدف منه الوصول إلى الحقيقة، والآن، أخبرني: ماذا تريد أن تشرب؟

شكره صابر بشدة، وفي النهاية طلب كوبًا من الشاي، ثم عاد محمود وقال:

- أخبرني قليلًا عن نفسك وعن أسرتك؟

– عمري ٥٢ عامًا، أعمل موظفًا في هيئة السكة الحديد، وبعد الظهر أعمل على تاكسي أجرة، تزوجت بابنة عمي وعمري ٢٥ سنة، رزقنا الله بابنتين بعد ١٠ سنين زواج، الكبرى ١٧ سنة والصغرى ١٥ سنة، كنا نعيش حياة بسيطة، ولكنها بفضل الله سعيدة، ولكن شاء المولى عز وجل أن تموت زوجتي بعد معاناة شديدة مع المرض منذ شهرين، وتركتني وحيدًا مع بنتين في عمر الزهور.

وبدأت الدموع تسيل من عينيه، فناوله محمود منديلًا؛ ليجفف دموعه، وواساه ببعض الكلمات، ولَمَّا هدأ، عاود محمود أسئلته وقال:

– ومتى تعرفت إلى القتيلة؟

– منذ سنتين تقريبًا.

– وكيف تعرفت إليها؟

– كانت زوجتي قد أُصيبت بمرض السرطان منذ نحو ٣ سنوات، وكنت دائمًا أحاول أن أوفر لها أفضل أنواع العلاج، وأذهب بها لكبار الأطباء، وبعد عام استعصى الأمر عليَّ بعد أن استنفذتُ كل ما أملك، فنصحني بعض المعارف بأن هناك جمعيات خيرية ترعى مرضى السرطان، فذهبت إلى واحدة منها، وهناك تعرفتُ إلى القتيلة، وكانت لحسن الحظ تبحث عن سائق خاص لها، فعرضت عليها خدماتي، فجربتني لفترة قصيرة، بعدها عملت لديها لمدة

عامين تقريبًا، واضطررت خلالهما أن أقوم بإجازة بدون راتب من العمل؛ لأن القتيلة كانت تحتاج إليَّ طول اليوم.

– متى تركتها؟

– منذ نحو ٣ شهور.

– لماذا؟

– كانت الهيئة ترفض تجديد الإجازة لي.

– ولماذا لم تبقَ معها، وتعمل في الفترة المسائية فقط؟

– كانت تشترط العمل صباحًا ومساء.

– وكيف عرفتَ بوفاتها؟

– قرأت نعيها في جريدة الأهرام.

– هل تعرف كيف ماتت؟

– حتى الآن لا أعرف، فعندما ذهبت لسرادق العزاء، لم ألتقِ أحدًا أعرفه غير الأستاذ سالم، والأستاذ مهند، ولم تسنح لي الفرصة أن أتكلم معهما.

– لقد ماتت مقتولة بطعنة في رقبتها.

منذ أن جلس صابر على الكرسي، لم يجرِ الدم في عروقه إلّا بعد سماعه لسبب الوفاة، بل إنه استطاع بأعجوبة، أن يمنع صرخة تعبر عن الفرحة،

كادت تخرج منه، حتى أن نبرة صوته أصبحت مغلفة بالثقة والفرحة معًا، وردَّ قائلًا:

- لا حول ولا قوة إلّا بالله، قدَّر الله وما شاء فعل.

لاحظ محمود كل التغيرات التي طرأت على صابر، دون أن يفهم سببها، ولكنه واصل يقول:

- هل كنت على تواصل مع المرحومة بعد أن تركت العمل لديها؟

- للأسف كانت حالة زوجتي تزداد سوءًا، ولم أتصل بالقتيلة مرة أخرى.

- ألم تعلم القتيلة بخبر وفاة زوجتك؟

- لا أعرف.

- أليس غريبًا أن تكون بينكما عشرة طيبة لمدة سنتين، وكانت تعلم بمرض زوجتك، بل إن مرضها هو سبب المعرفة، ولا تتصل بك ولو مرة لتطمئن عليها؟

تلعثم صابر وقال:

- لقد كان للقتيلة مشاغل كثيرة.

- متى كانت مواعيد عملك لدى المرحومة؟

– من العاشرة صباحًا حتى الثامنة مساء طوال أيام الأسبوع، ويوم الجمعة إجازة.

– هل كانت القتيلة تقود سيارتها في وجودك؟

– أيام إجازاتي فقط.

– هل كنت تصاحبها لأي مكان تذهب إليه؟

فكر صابر قليلًا وقال:

– نعم، ولكنها كانت أحيانًا تطلب مني أن أنتظر مع عمران البواب؛ لأن لديها مشوارًا لا تحتاج إليَّ فيه، وكانت تذهب لعدة ساعات ثم تعود.

ابتسم محمود وقال:

– أشكرك يا صابر على تعاونك، وأرجو في المرة القادمة التي سأراك فيها، أن تأتي في حال أفضل من اليوم.

– وهل سآتي هنا مرة أخرى يا أفندم؟

– كل شيء رهن الظروف يا صابر.

ثم سمح له بالانصراف، وظل يرقبه حتى غادر المكتب، فقال لأسامة:

– هذا الرجل يكره مديحة بشدة.

***

غادر صابر قسم الشرطة، وهو يكاد يطير من الفرحة، فهو الآن عصفور حُرٌّ طليق ولن يحبسه أحد أبدًا، يستطيع الآن أن يرعى ابنتيه بنفسه ويطمئن عليهما، بل تستطيع زوجته أمينة أن تهدأ في قبرها، وتوجَّه على الفور إلى مقابر البساتين حيث يستطيع أن يحكي لأمينة ما لا يستطيع أن يحكيه لأحد، وأمام قبرها قرأ الفاتحة، ثم جلس وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وبدأ يحكي لها.

***

استغرقت معاينة العميد محمود لثيلا مديحة نحو ساعة، جلس بعدها مع مهند في غرفة المكتب، وبدأ الكلام قائلًا:

– لقد أخبرتني أمس، أنك كنت على اتصال شبه يومي بالمرحومة والدتك، وكنت تعلم عنها كل شيء، فهل أنت على يقين من ذلك؟

– بالطبع.

– إذًا هل كنت تعلم، أن والدتك كانت ستتزوج يوم مقتلها؟

وقع كلام محمود على مهند كالسيل المنهمر، فاهتزت كل أوصاله، وردَّ وهو يرتجف:

– ماذا تقول؟ مَن أخبرك بهذه الخرافات؟

– أعز صديقات والدتك، السيدة نادية.

– إنها كاذبة، بالتأكيد كاذبة، أمي لم تكن تفكر قط في الزواج.

– وما سبب كذب صديقتها في رأيك؟

– لا أعرف، يمكنك أن تذهب وتسألها.

– أنا لم أكذبها حتى أسألها، أنت من يكذبها، فوجب عليك أنت أن تسألها.

– بالطبع سأفعل.

– لكني في واقع الأمر لا أجد مبررًا لانفعالك بهذا الشكل، فما العيب إن فكرت أمك في الزواج! فهي تعيش وحيدة، وتحتاج إلى أنيس في وحدتها.

– بالطبع ليس عيبًا أن تفكر أمي في الزواج، ولكني انفعلت لأن ما تقوله يشكك في علاقتي بها، ومعناه أنها لم تكن تخبرني بكل شيء كما كنت أظنُّ.

– أليس من المحتمل، أنها خشيت أن تعترض على الفكرة، أو على الشخص الذي تنوي الارتباط به؟

– حتى لو اعترضتُ، أمي كانت ذات شخصية قوية، لو صممت على أمر نفذته.

– هل تسمح وتستدعي لنا هنية الشغالة، أريد أن أسألها عن شيء في وجودك.

حضرت هنية فسألها محمود:

- هل سمعتِ سيدتك تتحدث عن أمور زواج مع أي شخص في التليفون؟

ردَّت هنية على الفور:

- أنا لا أتنصت على سيدتي أبدًا، فهذا ليس من طباعي.

- أنا متأكد من هذا، ولكن أحيانًا يكون صوت المتحدث عاليًا، ويأتي إلينا كلام نسمعه عن طريق المصادفة، وهذا ما أقصده، والآن حاولي أن تتذكري إن كنتِ سمعتِ كلامًا من هذا القبيل يوم وفاتها.

فكرت هنية قليلًا وردَّت:

- نعم تذكرت، كانت تتكلم مع شخص، وسمعت كلمة شهر العسل، ثم سمعتها تضحك وتقول، إنها تفضل شهر العسل خارج مصر، ولكن هذا الكلام سمعته قبل وفاتها بيومين أو ثلاثة، وليس يوم وفاتها.

شكرها محمود، وتركها تنصرف، ثم سأل مهند:

- والآن ما رأيك في كلام هنية الشغالة؟

امتقع وجه مهند، ولم يعد قادرًا على الرد، واكتفى بقوله:

- واضح أني كنت لا أعلم شيئًا عن أمي، ثم شرد قليلًا وأردف:

- ولا عن أبي.

***

في أثناء عودة محمود مع أسامة إلى القسم، سأله أسامة:

- هل توصلت لشيء يا أفندم؟

- أصارحك أن القضية تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم.

ثم سكت قليلًا وقال:

- ماذا عن بيان التليفونات التي اتصلت برقم القتيلة؟

- جارٍ فحصها، وفي المساء سيكون التقرير أمام سيادتك.

- هل تعلم أني رأيت صورة القتيلة اليوم لأول مرة؟

- الصورة المعلقة في غرفة نومها؟

- بالفعل، لقد وجدتها امرأة شديدة الجمال والجاذبية، هل قابلتها من قبل يا أسامة؟

- نعم، حضرت إلى القسم ذات مرة، والتقيتها أنا ومأمور القسم، وتبرعت ساعتها بمبلغ من المال لصالح الجنود.

– وما انطباعك عنها؟

– كما قلت سيادتك، كانت امرأة جميلة وذات شخصية قوية.

– أريد منك أن تجلس اليوم ليلًا بعد أن تنهي أعمالك، وتكتب لي تقريرًا مفصلًا عن هذه المرأة، وانطباعاتك عنها، كما أريد أن ألتقي مع زوج مدام نادية، اليوم في مكتبي الساعة السادسة.

– عفوًا للسؤال، ولكن ما علاقته بالقضية؟

ابتسم محمود وردَّ بخبث:

– علاقته أنه زوج الصديقة المقربة للقتيلة.

***

بعد أن غادر الضابطان ڤيلا مديحة، جلس مهند في غرفة المكتب وحيدًا وظل شاردًا يفكر، وفجأة، ضحك ضحكة هستيرية، وقال هامسًا:

"كنت أتصور أن هذا الضابط ذكي، لقد صدَّق أني كنت أجهل خبر زواج أمي".

(١١)

توتر عمر عندما علم أن العميد محمود يريد مقابلته، ولكن زوجته طمأنته، وأكدت له أنه يريده فقط لاستكمال شكل التحقيق، وحذرته أن أي توتر سيولِّد الشكَّ في نفس محمود، وستكون العواقب وخيمة.

في السادسة تمامًا، كان عمر يحتسي القهوة في مكتب العميد محمود داخل مديرية الأمن، وكان قد استجمع كل ما أوتي من قوة ورباطة جأش؛ حتى لا ينفضح أمره أمام محمود، والذي وصل في تلك الأثناء، وبعد أن تبادل التحية مع عمر، بدأ كلامه قائلًا:

– أعتذر عن إزعاجك، ولكننا نحاول أن نبحث عن أي ضوء ينير لنا الطريق.

– أنا تحت أمرك يا أفندم.

– كيف كانت علاقتك بالمرحومة؟

اهتز فنجان القهوة في يد عمر، وتلعثم في الكلام وقال:

– عفوًا يا أفندم، ماذا تقصد من سؤالك؟ فأنت تعلم جيدًا أن علاقتي بالمرحومة هي أنها كانت أعز صديقة لزوجتي.

ردَّ محمود وهو يبتسم:

– اهدأ يا أستاذ عمر، أنا لم أقصد ما فهمته، ولكن قصدت هل كانت علاقتك بها، تسمح بأن تحكي لها عن مشكلات بينك وبين زوجتك؛ لتقوم هي بدور وساطة في حلها، أو هل كانت تحكي لك عن مشكلات خاصة بها، تساعدها في حلها؟

– أعترف أني فهمت سيادتك خطأ في البداية، وكان هذا سبب ارتباكي، ولكن بالفعل، كنت أخًا لها في كثير من المواقف التي احتاجت إليَّ فيها، ولكني لم أكن أحكي لها قط عن مشكلات بيني وبين زوجتي، ولكن بالطبع زوجتي كانت تحكي لها كل شيء.

ثم ضحك وأردف:

فسيادتك تعرف طبيعة النساء.

– وما رأيك في شخصية المرحومة؟

– كانت تتمتع بشخصية قوية جدًّا.

– متى آخر مرة رأيتها؟

فكر عمر قليلًا، وقال:

– أظنُّ قبل الوفاة بنحو أسبوع.

– ومتى كانت آخر مرة دار بينكما اتصال تليفوني؟

– لا أذكر، فلم تكن الاتصالات بيننا كثيرة.

شكره محمود على حسن تعاونه، وسمح له بالانصراف، وفي هذه الأثناء دخل أسامة مكتب محمود، حاملًا في يده تقريرًا عن الاتصالات التي تمت مع رقم تليفون مديحة في آخر أسبوع من حياتها، وقال بصوت تكسوه نبرة الانتصار:

– واضح أننا بدأنا نقترب من القاتل يا أفندم، هل تعلم مَن اتصل بالقتيلة يوم وفاتها؟

– مَن؟

– عمر زوج نادية، وزكي طليقها.

***

(١٢)

ما إن نطق أسامة بأسماء من اتصلوا بالقتيلة يوم الجريمة، حتى أخرج محمود من فمه صافرة طويلة، وقال:

– اتصال طليقها بها هو المفاجأة لي، ولكن بالنسبة لعمر لم أُفاجأ.

– هل تظن أن عمر كان على علاقة بها؟

– أنا لا أظن، بل أنا متأكد، ولكن لا أعرف ما هي طبيعة تلك العلاقة، ولكني على يقين أن هناك شيئًا يخفيه عمر وسأعرفه.

– معنى هذا أنها لم تكن وفية لصديقتها؟

– لا، أنا لم أقصد هذا، أنا متأكد أن هناك شيئًا من جانب عمر، ولكن تجاوب مديحة معه لا أعرفه حقًّا.

– والآن ماذا بخصوص طليقها؟

– هذا بالفعل هو المفاجأة الكبرى لي، ولذا يجب أن ألتقيه فورًا.

– أين تريد أن تقابله يا أفندم؟

– أفضل أن نلتقيه في مكتبه، في العاشرة والنصف صباح باكر.

– وماذا سنفعل مع عمر؟

– دعنا ننتهِ أولًا من زكي، ثم ننتقل إلى عمر.

– تمام يا أفندم، وهمَّ بالمغادرة ولكنه توقف فجأة، وقال:

– بالمناسبة، اتصل بي مهند عصرًا، وأخبرني بأمر غريب جدًّا.

– ما هو؟

– أخبرني أنه لأول مرة منذ قدومه إلى مصر، حاول أن يقود سيارة أمه، لكنه فوجئ بأن الفرامل لا تعمل، وتمكن من إيقاف السيارة بأعجوبة، وعندما استدعى ميكانيكيًّا، أخبره أن الفرامل تم العبث بها بفعل فاعل.

– وكيف كانت نبرة صوته وهو يحكي لك؟

– كان عاديًّا.

همهم محمود وهز رأسه وقال:

– حقًّا هي أغرب قضية واجهتني.

***

كان المهندس زكي يجلس في منزله ليلًا، عندما رن جرس تليفونه المحمول، وكان المتصل عمران، فردَّ قائلًا:

- أهلًا عمران، ما الأمر؟

- هناك أمر مهم أريدك بشأنه.

- أنا مشغول جدًّا، أخبرني: ماذا تريد؟

- لا يمكن أن أخبرك في التليفون، سأحضر لك باكرًا في المكتب الساعة ١٠ صباحًا.

***

وصل محمود إلى منزله، وطلب من زوجته إعداد العشاء له سريعًا، وبعد أن تناوله، أغلق عليه غرفة مكتبه، وأخرج مفكرته الخاصة بالقضية، وقرأ ما دوَّنه من قبل، ثم قرأ رسالة مديحة، بعد ذلك أمسك بقلمه ودوَّن الملاحظات التالية:

١- ذعر صابر الشديد في بداية التحقيق، وفرحته الكبيرة عند علمه بسبب وفاة مديحة.

٢- صابر يكره مديحة.

٣- انفعال مهند الشديد عند علمه بنبأ زواج أمه.

٤- مهند يبلغ أسامة بالعبث في فرامل السيارة وكان هادئًا.

٥- توتر عمر عندما سأله عن علاقته بمديحة.

٦- اتصال زكي بطليقته يوم قتلها.

ظل محمود يتأمل ما كتبه، وبدأ يكتب في جزءٍ من المفكرة خصصه لتحليل الملاحظات، وبعد فترة شعر بالإجهاد، فترك القلم، وذهب لغرفة نومه، واستسلم للنوم.

***

(١٣)

أمام ڤيلا قديمة بحي الدقي يوجد بها مكتب المهندس زكي، أوقف أسامة السيارة، وفي اللحظة التي كان يهمّ للنزول منها، إذا بمحمود يجذبه من يده ويمنعه، فقد رأى عمران يغادر الڤيلا في هذه اللحظة، فأراد ألّا يعرف عمران أنهما رأوه، فاندهش أسامة بشدة وسأل:

– ما العلاقة التي تربط عمران مع المهندس زكي؟

ردَّ محمود بهدوء:

– هذا ما سوف نعرفه بعد قليل.

داخل مكتب زكي بدأ محمود الكلام قائلًا:

– بداية نعتذر عن تأخرنا قليلًا، بسبب ظروف طارئة منعتنا من الحضور في الموعد.

ردَّ زكي في أدب:

– تحت أمرك في أي وقت يا أفندم.

– في الحقيقة أنت بعيد كل البعد عن ظروف الحادث، حتى أن الرائد أسامة استغرب مني عندما طلبت تحديد موعد لمقابلتك، ولكن أنا أحاول البحث عن أي خيط من الممكن أن يساعدنا في هذه القضية، والتي لا أخفي عليك، أنها ليست قضية سهلة.

– أنا تحت أمرك في أي سؤال.

– علمت أنك منفصل عن المرحومة منذ ١٠ سنوات تقريبًا، بعد زواج استمر ما يقرب من ٢٠ عامًا، فهل هذا صحيح؟

– نعم صحيح.

– هل لي أن أعرف أسباب الانفصال؟

– أظنُّ أن هذه أمور شخصية، ولن تفيد في القضية.

– لقد تعمدت يا باشمهندس، أن أبدأ كلامي بمقدمة توضح لك أنني أجري وراء أي خيط يمكن أن أستفيد منه، وأن القضية ليست سهلة، وأنت لم تمانع في المساعدة، فأرجوك دع تقييم ما يفيد لي، وعليك فقط بالإجابة.

ارتفعت نبرة صوت محمود تدريجيًّا حتى بلغت ذروتها مع نهاية عبارته، مما أدخل الذعر في نفس زكي، وردَّ قائلًا:

– كانت الغيرة هي السبب الرئيسي، فمنذ بداية زواجنا والغيرة تلازمها، ولكن مع الزمن زادت حدتها، ولم أعد أتحمل.

– ولكن المرحومة كانت جميلة، فما سبب غيرتها؟

– الجميلات هنَّ الأكثر شعورًا بالغيرة، لأنهن لا يتحملن سماع كلمة مديح واحدة يقولها الزوج في حق أي امرأة، بالإضافة إلى أنها كان لديها دائمًا هاجس بأني سأتزوج امرأة أخرى.

– وهل تزوجت امرأة أخرى؟

– بالطبع، ولكن بعد انفصالي عن مديحة.

– ومتى تزوجت؟

– منذ فترة طويلة، ولديَّ فتاة جميلة عمرها الآن ٨ سنوات.

– أرجو أن تذكر تحديدًا متى تزوجت؟

– منذ تسع سنوات تقريبًا، أظن أن التاريخ لن يفرق.

اعتدل محمود في جلسته، واكتسبت نبرة صوته حدة وقال:

– أرجو أن تفهم يا باشمهندس، أننا بصدد جريمة قتل، وسبق أن قلت لك أنا من يحدد هنا المعلومات المهمة، وقد تعمدت أن ألتقيك في مكتبك وليس المديرية؛ لتكون أقل توترًا وأكثر مساعدة، ولكن لو داومت على هذه الطريقة في الأجوبة، فسيكون لي معك شأن آخر، وأتصور أنه لن يرضيك، ولتعلم أني على يقين مقدمًا من أنك تزوجت قبل أن تنفصل عن مديحة.

اهتزَّ زكي بشدة من الطريقة التي تحدث بها محمود، وكانت الضربة القاضية له، عندما أخبره أنه يعرف أنه تزوج قبل أن ينفصل عن مديحة، فسكت، وأحنى رأسه قليلًا ثم رفعه، وتكلم بصوت منكسر، وقال:

– أعتذر لك يا أفندم، ولكن صدقني لقد تصورت بالفعل أن موعد زواجي لن يفيد القضية، كما خشيت أن تظنُّ أني رجل خائن لزوجته، وأنا أعترف أنك على حق، فأنا تزوجت قبل أن أطلق مديحة.

– ومتى تزوجت؟

– قبل أن أطلق مديحة بنحو عام.

– وهل كان سبب الطلاق أنها عرفت بزواجك؟

– نعم، وبمجرد أن عرفت، تم الطلاق في خلال يومين، فهي كانت شديدة الكبرياء، ولا تقبل بهذا الوضع أبدًا.

– ما السبب الحقيقي لزواجك بامرأة غير مديحة؟

– صدقني كانت غيرتها قاتلة، بالإضافة إلى أن التفاهم بيننا انعدم، ولم أعد أشعر معها بأي راحة.

– متى كانت آخر مرة رأيت القتيلة؟

– لم أرها منذ طلقتُها.

– هل انقطعت صلتك بها تمامًا بعد الطلاق؟

– نعم، باستثناء بعض المكالمات التليفونية لأمور خاصة بابننا مهند.

– ومتى كانت آخر مرة اتصلت بها؟

– لا أذكر، أعتقد من فترة.

– هل اعتمدت في يوم من الأيام على ثروتها؟

– لا، لم يحدث قط.

في طريق محمود وأسامة إلى الخارج، وبرفقتهما زكي يصطحبهما إلى باب الڤيلا الخارجي، التفت محمود إلى زكي فجأة، وسأله:

– ما علاقتك بعمران بواب ڤيلا المرحومة؟

ارتبك زكي، ولم ينجح في إخفاء ارتباكه، وردَّ متلعثمًا:

– لا علاقة لي به، كل ما في الأمر أني أعطف عليه ببعض المساعدات المالية.

– وكيف عرفته وليس لك صلة بالمرحومة؟

– تعرفت إليه يوم العزاء.

***

استقبلت زوجة عمران زوجها بقلقٍ، وقالت:

– ماذا فعلت مع زكي بك؟

– طلبت منه ٢٠٠ ألف جنيه؛ حتى لا أخبر الشرطة.

لطمت مرزوقة وقالت:

– كم؟ وهل سيدفع لك كل هذا المال؟

– هذه الأرقام لا تساوي شيئًا عند هؤلاء، فهو مليونير.

– وماذا قال لك؟

– قام ببعض التصرفات التي كنت أتوقعها، فقد حاول أن يظهر عدم اهتمامه، بعد ذلك هددني، ولكن أؤكد لكِ أنه سيدفع، وأنا أعطيته مهلة لمدة يومين.

– لعنة الله على المال، أنا متأكدة أن هذا الأمر لن ينتهي على خير.

– لا تكوني جبانة، أنا على يقين أنه سيدفع المبلغ.

وإذا بتليفون عمران يرن، فوجد رقمًا لا يعرفه، فردَّ عليه، وإذا بوجهه يتهلل فرحًا ويقول:

– سأكون هناك في الميعاد.

ثم أغلق التليفون، وقال لزوجته:

– صدقتِ كلامي يا غبية، زوجك بحق أذكى راجل في العالم، سأحصل على المال اليوم، ومن باكر أبدأ أحقق كل ما أتمناه.

– هل وافق زكي بهذه السرعة؟

– ألم أقل لكِ أنكِ غبية وإني أذكى رجل في العالم، هذا شخص آخر سيدفع أيضًا ٢٠٠ ألف جنيه.

ثم انطلقت منه ضحكة رجت أرجاء المكان.

(١٤)

طلب محمود من أسامة أن يُقله إلى مكتبه في مديرية الأمن، وهناك أخرج محمود مفكرته الخاصة ودوَّن فيها:

١- زكي على علاقة مع عمران.

٢- زكي يقول إنه لم يرَ القتيلة منذ طلاقهما.

٣- زكي يقول إنه يتصل أحيانًا بمطلقته تليفونيًّا؛ لأمور تتعلق بابنهما، ويخفي اتصاله بها يوم مقتلها.

٤- زكي تزوج قبل أن يطلق القتيلة.

٥- زكي يقول إنه لم يعتمد قط على ثروة القتيلة.

٦- زكي يقول إن أحواله المادية مستقرة.

٧- زكي يقول إن الطلاق من القتيلة بسبب الغيرة.

ثم انتقل إلى صفحة تحليل الملاحظات، وظل يدوّن بها حتى شعر بالإجهاد، فأغمض عينيه، وأرجع رأسه على مسند الكرسي، وفجأة انتبه والتقط تليفونه، واتصل بأسامة، وأبلغه أنه سيذهب إليه، ويريد رؤية عمران وهنية فورًا.

***

كانت الساعة تقترب من الثالثة عصرًا، عندما كان محمود يجلس على مكتب أسامة داخل قسم الشرطة، وعمران يقف أمامه، وبدأ محمود الكلام قائلًا:

- كيف حالك يا عمران؟

- الحمد لله يا أفندم.

- ما علاقتك بالمهندس زكي طليق القتيلة.

وبثبات وثقة ردَّ عمران:

- رجل عطوف وكريم، منحني بعض المال يوم العزاء، وذهبت له اليوم في مكتبه، ومنحني أيضًا بعض المال.

- وكيف عرفته؟

- الأستاذ مهند عرفني إليه يوم العزاء.

– اسمع يا عمران، قد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي أنصحك فيها، وأذكرك أنك تلعب بالنار، بل إنك تلعب مع مجرم شديد الإجرام، وإن إخفاءك المعلومات، سيؤدي بك إلى كارثة لا يعلمها إلّا الله.

– أنا يا أفندم أقول كل ما أعرفه، ثم سكت قليلًا وقال:

هل ممكن أن أنصرف الآن؟

– نعم، ولكن تأكد أني سأطلبك مرات عديدة.

– ولكن يا أفندم موعد إجازتي اقترب، وأرغب في السفر لقريتي.

– كم مرة تسافر إلى قريتك في السنة؟

– إجازتي شهر كل عام، وهو شهر أغسطس، لأن هذا هو موعد مصيف الهانم.

– ومتى آخر مرة ذهبت إلى قريتك؟

– منذ شهرين تقريبًا.

– لماذا؟

– أبلغتنا الست مديحة أنها ستسافر خارج مصر لمدة أسبوع، وترغب في إعطائنا إجازة؛ لنزور أهلنا في قريتنا، ومنحتنا أيضًا مبلغًا من المال.

- وهل حدث هذا منها من قبل؟

- لا، إنها المرة الأولى، وفرحنا جدًّا، وذهبنا إلى قريتنا.

- وهل فعلت هذا أيضًا مع هنية؟

- نعم، أعطتها إجازة بأجر هذا الأسبوع.

- يمكنك أن تنصرف الآن، ولا تغادر القاهرة تحت أى ظرف، وتذكر دائمًا أني حذَّرتك. وقبل أن يصل إلى باب المكتب، استوقفه محمود، وطلب منه أن يعطيه موبايله، فناوله له وهو لا يفهم شيئًا، فتفحصه، ثم أعطاه إياه مرة أخرى، وسمح له بالانصراف.

***

دخلت هنية والخوف يبدو عليها، فهدَّأ محمود من روعها وقال:

- لا تخافي أبدًا يا هنية، فأنا أثق بكِ بشدة.

فطمأنها كلامه، وبدا عليها الهدوء نسبيًّا، فبدأ يسألها وقال:

- أخبرني عمران أن سيدتك أعطتكِ إجازة مدفوعة الأجر لمدة أسبوع منذ حوالى شهرين، فهل هذا صحيح؟

- صحيح يا أفندم.

– ولِمَ فعلتْ هذا؟

– قالت إنها ستسافر أسبوعًا خارج مصر ولن تحتاج إليَّ.

– وهل سافرتْ؟

– وكيف لي أن أعرف؟

– لقد كنتِ صادقة يا هنية معي في أول مرة، فأرجو أن تستمري على صدقك.

سكت لحظات ثم أردف:

– ألم يلفت انتباهك، في أول يوم عمل لكِ بعد عودتك من تلك الإجازة، أي شيء استغربتِ له؟

فكرت هنية قليلًا وقالت:

– ولكن أرجو أن تعدني أن ما أقوله سيكون سِرًّا يا أفندم، وإلّا من الممكن أن يُقطع رزقي.

طمأنها محمود على ذلك فقالت:

– يوجد في الدور العلوي كما تعرف حجرتي نوم، واحدة لسيدتي، والأخرى تبقى دائمًا خالية لا تستخدم، ولكن عندما عُدت من إجازتي،

وجدت هذه الحجرة قد استخدمت وقد بدا هذا على الفراش، بل إني وجدت عقب سيجارة ملقًى تحت أحد الكراسي بها، ولمَّا سألت سيدتي عن متى عادت من السفر، أجابتني أنها عادت بالأمس ليلًا، فعرفت أنها لا تقول الحقيقة.

– وهل كانت سيدتك تدخن؟

– لا، مطلقاً، حتى عقب السيجارة الذي وجدته كان شكله غريبًا، حيث كان لونه بنيًّا، وأنا لم أرَ في حياتي سيجارة بنية اللون، فزوجي مدخن، وعندما عدتُ إلى منزلي، سألت زوجي عن هذه السيجارة، فأخبرني أنه يوجد بالفعل سيجارة لونها بنى، ولكن عادة ما تدخنها النساء.

سكتت لحظات وزاغ بصرها بين الضابطين قبل أن تقول:

– ولكني تفاجأتُ عندما اكتشفت، أن الأستاذ مهند يدخن سجائر لونها بني.

***

انصرفت هنية من القسم، وتركت الضابطين وكأن على رأسيهما الطير، وظل محمود صامتًا لا ينطق بحرف، وكانت الساعة تشير إلى الخامسة، فأبلغ أسامة أنه سيغادر، وسيكون على اتصال به، ثم اتجه إلى مطعم قريب، وطلب

طعامًا، تناوله وعقله لا يتوقف عن التفكير، وشعر أن القضية تتعقد، وكلما تصور أنه بدأ يقترب من الحل يجد نفسه يبعد أكثر.

بعد أن فرغ من الغداء، طلب فنجانًا من القهوة، وبينما هو يشرب قهوته، اتصل بمهند وطلب منه أن ينتظره في الڤيلا؛ لأنه سيَمُرّ عليه، ثم طلب من النادل إحضار فنجانًا آخر من القهوة، ظل يشربه على مهلٍ، وبدأت صورة لأمر ما تضح في عقله، فترك فنجان القهوة دون أن يكمله، وانطلق سريعًا متوجهًا إلى مهند.

وصل إلى الڤيلا وكانت الساعة تشير إلى السابعة مساء، وقابله مهند عند باب الڤيلا الخارجي، ولَمَّا دلفا إلى الداخل، بدأ كلامه معه بنبرة حادة قائلًا:

– يؤسفني القول، إن القضية تتعقد أكثر وأكثر، والسبب أنه لا يوجد أحد من أهل أو معارف الضحية يريد أن يكون واضحًا وصريحًا.

– كيف؟

– أريد أن أسألك سؤالًا واضحًا، وأريد إجابة أكثر وضوحًا، فهل تستطيع؟

– بالطبع، أنا تحت أمرك.

– هل يهمك الوصول إلى قاتل أمك؟

ابتسم مهند، وقال بنبرة بها قليل من السخرية:

– وهل في ذلك شك؟ بالطبع يهمني.

– وهل تعلم أنه لكي نصل إلى الحقيقة، يتحتم على كل شخص ممن نحقق معه، أن يقول الحقيقة؟

– بالطبع.

وهنا تغيرت قسمات وجه محمود، وتطاير الشرر من عينيه، واحتدت نبرة صوته، وقال:

– إذن لماذا لم تخبرني أنك حضرت إلى مصر منذ شهرين؟ ولماذا أظهرت أنك لا تعرف بخبر زواج والدتك؟

تبدَّل مهند إلى شخص آخر، وبعد أن كان يجلس وكله ثبات وثقة، ارتعدت أوصاله، ولم يستطع أن يداري خوفه، حتى أن العرق بدأ يتصبب من جبينه، وأخرج علبة سجائره، وتناول منها سيجارة أشعلها بيد مرتعشة، وكانت سيجارة بنية اللون.

وجد محمود أنها اللحظة المناسبة ليجهز عليه تمامًا فقال:

– لن تستطيع أن تخفي عنى شيئًا مهما تحاول، كل ما تفعله أنك تؤخرني عن حل القضية، ولكنك لن تمنعني من حلها، ولو كان ثأر أمك لا يهمك، فأنا العدالة تهمني.

ظَلَّ مهند مطأطئ الرأس، والسيجارة ترتعش في يده، ثم رفع رأسه بعد برهة، وقال بصوت يرتجف:

- سأقول لك كل شيء.

- أريد الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة.

استجمع مهند قواه، وبدأ يحكي قائلًا:

- منذ نحو شهرين أو أكثر قليلًا، أخبرتني أمي أنها ستتزوج، وانتهت المكالمة بيني وبينها بشجار عنيف.

وهنا قاطعه محمود وقال:

- هل كنت ترفض أن تتزوج أمك مرة ثانية؟

- لا، ولكن عندما سألتُها عن شخصية العريس لم تخبرني، وأنا أعرف أمي جيدًا، فلو كان هذا العريس كفئا لها، لأخبرتني على الفور؛ حتى تصل المعلومات لأبي فيغتاظ، لأنها لا تزال تحمل له حقدًا بسبب أنه تزوج عليها، ولكنها عندما صممت ألّا تخبرني بشخصية العريس، تأكدت أنه شخص غير مناسب، وسوف يخدعها ويستغلها، وستخسر معه في النهاية.

قررت أن أحضر إلى مصر، لعلي أستطيع أن أعرف منها عندما أتحدث معها وجهًا لوجه، وبالفعل أخبرتُها بقدومي، وللحق فرحت؛ لأنها تصورت أنها ستقنعني بقبول زواجها.

لكن للأسف لم تخبرني عنه بكلمة، فتأكدت أنها وقعت في براثن شيطان، استطاع أن يملأ عقلها وقلبها.

في النهاية، انتهى الأمر بأني أمضيت معها ٣ أيام، انتهت بمشاجرة بيننا، وتركت الڤيلا رأسًا إلى المطار، وعدتُ إلى كندا.

ولَمَّا قُتلت أمي، ولم تكن تزوجت بعد، فضّلت ألّا أحكي هذه القصة لأحد؛ حتى لا يخوض الناس في سمعة أمي، وخاصة وقد عرفت منها أنها لم تحكِ لأحد قصة زواجها، وكنت على يقين أن القتل سببه السرقة، وأن قصة زواجها لن تفيد التحقيق بأي شكل.

ثم التقط أنفاسه وقال:

- وأقسم لك أن هذه هي الحقيقة.

- ألم تشك في العريس أن يكون هو القاتل؟

- لم أشك لحظة، لأني على يقين أنه نصاب، وأنه خسر كثيرًا من موت أمي قبل أن يتزوجها.

- هل قابلتَ أباك في هذه المرة؟

- نعم زُرتُه مرة واحدة فقط.

- هل أخبرته بنية أمك الزواج؟

– لا، على الإطلاق.

– ولماذا أرادت أمك، أن يغيب البواب والشغالة عندما تأتي إلى مصر؟

– أمي امرأة ذكية، تعرفني وتعرف نفسها، فكلانا إذا انفعل لا يستطيع أن يسيطر على أعصابه، فكانت تخشى أن يعرف البواب والشغالة بهذه الأمور.

– ولماذا أعطتهم إجازة أسبوعًا، إذا كنت حضرت ٣ أيام فقط؟

– أقسم لك لا أعرف.

– هل تريد أن تخبرني بأي أمور أخرى؟

– نعم، لقد وجدت عمران أمس يأتي إليَّ، ويحاول ابتزازي، وطلب مني مبلغ ٢٠٠ ألف جنيه، وإلّا سيبلغ الشرطة عن قصة حضوري منذ شهرين، ويجعل الشبهات تحوم حولي.

– وماذا قلت له؟

– عنفتُه، وسألته عن أي شبهات يتحدث؟

– وبماذا ردّ؟

– قال إن لم أدفع، فسأعرف الشبهات وقتها من الشرطة.

– وماذا قلت له؟

– طردته من داخل القيلا.

– وماذا فعل؟

– وقف هادئًا مبتسمًا، ونصحني بألّا أتعجل، وأمهلني يومين.

– وما قرارك؟

– لقد أخبرتُك، وأنتظر نصيحتك.

في هذه اللحظة رنَّ جرس تليفون محمود، وكان المتصل هو أسامة، وبدا على وجهه الانزعاج وهو يستمع، ثم قال:

– سآتيك حالًا فأنا قريب منك، وأغلق التليفون، ثم نظر إلى مهند وقال:

– اطمئن فلن تدفع شيئًا لعمران.

– لماذا؟

– لأنه قُتل.

(١٥)

في أحد الأماكن المتطرفة بالقاهرة الجديدة، وفي شارع صغير لا يوجد به مبنى واحد مكتمل البناء، وأمام واحد من هذه المباني، اصطفت سيارات الشرطة، بينما وقف محمود يعاين جثة عمران، وإلى جانبه أسامة، يحكي له عن الحادث فقال:

– تلقينا بلاغًا في الساعة الثامنة وعشر دقائق، يفيد بوجود جثة لرجل، عند مدخل عمارة تحت الإنشاء، وتم اكتشاف الجثة بمعرفة بواب أحد المباني المجاورة في أثناء سيره في الشارع.

ولمَّا انتقلنا إلى هنا، تعرفت على الجثة، فاتصلت بسيادتك، وحضر رجال الأدلة الجنائية، كما حضر الطبيب الشرعي والذي قام بمعاينة الجثة ظاهريًّا، فأثبت أن الوفاة نتيجة طلق ناري في مؤخرة الرأس، ويُرجَّح أنها حدثت بين الخامسة والسابعة مساء.

لم يعلق محمود على ما قاله أسامة بكلمة، وغطى الوجوم الشديد وجهه؛ لأنه توقع قتل عمران، لكنه لم يستطع أن يمنعه، ثم طلب من أسامة أن يصحبه سريعًا لزوجة عمران قبل أن تعرف بالخبر، وفي الطريق سأل إن كانوا عثروا على موبايل عمران معه؟ فأجابه أسامة بالنفي، فهز رأسه ولم يعقب.

فتح مهند باب الڤيلا الخارجي للضابطين، فلمَّا سأله محمود عن زوجة البواب ليخبرها بوفاته، فوجئ منه أنه سبقه وأخبرها، فانفعل وغضب، فبرر له مهند أنه أراد أن يواسيها بنفسه، وبسرعة توجه ثلاثتهم إلى مرزوقة في حجرتها، واندهش محمود عندما وجدها صلبة ومتماسكة، وإن كانت الدموع تبدو متحجرة في عينيها، وبعد كلمات المواساة والتعازي قال:

– أرجو أن تعاونينا ولا تفعلي مثلما فعل زوجك، لقد حذرته أكثر من مرة وكان آخرها اليوم، وأبلغته أنه في خطر، ولكنه لم يستمع إليَّ، فأرجو أن تخبريني عن كل ما تعرفينه، وكل ما كان زوجك يخفيه؟

ظلت مرزوقة شاردة لا تردّ وكأنها لا تسمع، ثم تكلمت بانفعال وقالت:

– زوجي أخبركم بكل ما يعرف، ولم يخفِ شيئًا.

انفعل محمود وقال:

– أنتِ تكررين ما فعله زوجك، وتعرضين نفسك، وتعرضين أولادك للخطر، أنتِ الآن ترين نتيجة عدم سماع زوجك لنصيحتي، يجب أن تخبريني بكل ما تعرفينه؛ حتى أحميكِ أنتِ وأولادك.

نظرت مرزوقة له في تحدٍّ، وقالت:

– هل كنت تعرف أن زوجي في خطر؟

– نعم، وأبلغته اليوم بذلك.

فردّت سريعًا بنبرة تهكمية:

– ولماذا لم تحمِه؟ هل تركته يموت لأنه لم يستمع لكلامك؟ ثم سكتت قليلًا وأردفت:

– الله هو الحامي يا أفندم.

تركها محمود بعد أن تأكد أنه لن يحصل منها على شيء في الوقت الراهن على الأقل، وخرج يقول لمرافقيه: إنه متأكد أنها تلقت تهديدًا، ثم حيّا مهندًا وانصرف.

في الطريق إلى القسم، ظل ملتزمًا الصمت وعقله لا ينتبه لأي شيء مما يدور حوله، حتى أنه لم يسمع أي سؤال سأله له أسامة، وفجأة، قال:

– أريد سجل التليفونات التي اتصلت برقم تليفون عمران منذ مقتل مديحة حتى اليوم، وتوقف لحظة ثم أردف:

– كما أريد القبض على المهندس زكي، وإحضاره إلى قسم الشرطة فورًا.

***

تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل بنصف ساعة، وكان زكي يجلس أمام محمود داخل مكتب أسامة بقسم الشرطة، وبدأ محمود الكلام قائلًا:

– في مقابلتي معك أول مرة، أخبرتك أننا ندير معًا حوارًا للوصول إلى الحقيقة التي تصل بنا إلى الجاني، ولكن هذه المرة يؤسفني أن أقول لك، إنك متهم بقتل عمران بواب ڤيلا طليقتك مديحة، فما أقوالك؟

– هذا كلام فارغ ولا أقبله.

– أين كنت في الفترة من ٥–٧ مساء أمس؟

– كنت في منزلي أجلس مع أسرتي.

– ما علاقتك بعمران؟

– أخبرتُك أمس.

فقاطعه محمود قائلًا:

– عليك أن تنسى ما قلتَه قبل ذلك؛ لأنها كانت جلسة خاصة، ولكنك الآن أمام تحقيق رسمي.

وضح الغضب على وجه زكي، وأكمل يقول:

– عمران هو بواب ڤيلا طليقتي، وتعرفت إليه من ابني يوم العزاء، وأعطيتُه مبلغًا من المال كنوع من الصدقة، وحضر أمس إلى مكتبي يسألني مبلغًا من المال؛ لأنه في ضائقة، فأعطيتُه، وهذا كل ما يربطني به.

- متى حضر لك أمس؟

- العاشرة والربع صباحًا تقريبًا.

- وما تبريرك لاتصالك به أمس، في الساعة الثانية بعد الظهر؟

تردد زكي قبل أن يجيب قائلًا:

- كنت أحاول أن أتصل بابني مهند، وكان تليفونه مغلقًا، فاتصلت بعمران ليبلغه أن يتصل بي.

- وهل أبلغه؟

- أظنُّ، لأن مهند اتصل بي بعد ذلك.

وهنا استدعى محمود مهندًا، والذي كان يجلس خارج المكتب، وسأله:

- هل أبلغك أمس عمران بأي رسالة من والدك؟

زاغ بصر مهند بين محمود وأبيه، فلفت محمود بحدة انتباهه بألّا ينظر مطلقا لأبيه، فانصاع للأمر وأجاب:

- لا، لم يبلغني عمران بأي رسالة.

- هل أغلقت تليفونك أمس لأي سبب من الأسباب؟

- لا، لم أغلقه.

– هل جرت أي اتصالات تليفونية بينك وبين والدك أمس؟

– نعم، اتصلت به نحو الساعة الثالثة عصرا.

طلب منه محمود أن يظل منتظرًا في الخارج، وأكمل التحقيق مع زكي وقال:

– سمعتَ من ابنك، أن تليفونه لم يكن مغلقًا، وأن عمران لم يبلغه أي رسائل، فما قولك؟

فكر زكي قليلًا وقال:

– بالنسبة لعدم غلقه التليفون، أنا لم أجزم أن تليفونه كان مغلقًا، ولكن من الممكن أن يكون في أحد الأماكن التي لا يكون بها إرسال فيكون كالمغلق، أمَّا بخصوص أن عمران لم يبلغه رسالتي، فليس هذا دليلًا على كذب ما قلت، بل دليلًا على تقصير من عمران، وقد أخبرك مهند أنه اتصل بي في الساعة الثالثة، وهذا ما جعلني أظن أن عمران أبلغه رسالتي.

– ألم تحكِ لابنك، أنك حاولت أن تتصل به، وأنك اتصلت بعمران ليبلغه؟

– نعم، كنت وقتها مشغولًا جدًّا، وليس لديَّ وقت لسرد كلام ليس ذا قيمة.

ظهر على وجه زكي بعد أجوبته السابقة علامات النصر والارتياح، وبدا على محمود علامات الغيظ، فهو يعلم علم اليقين أن زكيًّا يكذب؛ فأراد أن يعطي نفسه فسحة من الوقت يهدأ فيها، دون أن يشعر زكي، فطلب من الجندي قهوة، ثم طلب من أسامة سيجارة، والذي اندهش لأنه أخبره من قبل أنه أقلع عن التدخين، وأمسك السيجارة دون أن يشعلها، وأمسك بقلم وأخذ يكتب في ورقة أمامه، وفجأة اعتدل في جلسته، وبنظرة كلها خبث ودهاء، وبنبرة تحدٍّ قال:

– قلتَ إنك تعرفتَ إلى عمران يوم عزاء طليقتك، فهل هذا صحيح؟

– نعم، صحيح.

– وبماذا تفسر الاتصالات التليفونية التي دارت بينك وبين عمران قبل وفاة طليقتك؟

لم يقع السؤال كالصاعقة على رأس زكي فقط، بل وقع على رأس أسامة أيضًا، فهو يعلم علم اليقين أنهم لم يحصلوا بعد على سجل التليفونات التي اتصلت بعمران، فكيف لمحمود أن يعرف هذه المعلومة، وتلعثم زكي في الرد وقال:

– مكالمات؟ أي مكالمات؟

ردَّ محمود بثقة، بعد أن تغلب على كذب زكي:

- لا داعي للإنكار، وعليك أن تقول الحقيقة، فلدينا بيان من شركة الاتصالات، مسجل فيه الاتصالات كافة التي تمت بينك وبين عمران.

وبانفعال واضح ردَّ زكي:

- لقد قلت الحقيقة، أنا لم أقتل عمران.

- هل علمت أن عمران حاول ابتزاز ابنك؟

تمهل زكي قبل أن يقول:

- لا، لم أعلم.

ومرة أخرى، استدعى محمود مهندًا وسأله:

- هل حاول عمران ابتزازك؟

- نعم.

- هل أخبرتَ والدك بهذا الأمر؟

- نعم أخبرته.

- وماذا كان رأيه؟

- أخبرني أنه سيتولى حَلَّ هذا الأمر بنفسه.

سمح له محمود بالانصراف، ونظر إلى زكي، وقال:

- هل لديك أقوال أخرى؟

في صوت يائس يخرج بصعوبة قال:

- أقسم لك أنا لم أقتل عمران، أنا بريء.

فنظر محمود إلى كاتب المحضر، وأملاه:

- أغلق المحضر في حينه، ويتم حبس المتهم، لحين عرضه على النيابة صباح اليوم.

انتهى التحقيق مع زكي في نحو الساعة الثالثة فجرًا، وقبل أن ينصرف محمود، قال لأسامة:

- رتب لي اليوم ما يلي:

١- التحقيق مع نادية الساعة ١١ في مكتبي بالمديرية.

٢- تحريات مباحث دقيقة عن عريس كانت مديحة تنوي الزواج منه.

٣- التقرير الذي طلبته منك عن شخصية القتيلة وكل شيء عنها.

٤- بيان التليفونات الخاص برقم تليفون عمران، ومتى بدأت اتصالاته مع زكي.

ثم توقف عن الكلام فجأة وقال:

– أرسل الآن فورًا إلى زوجة عمران أحد معاونيك، ليرى إن كانت تملك تليفونًا محمولًا أم لا، وإن كانت تملك فدعه يفحص أي مكالمات استقبلتها أمس وخاصة مساءً، بعد مقتل زوجها، ثم قام من كرسيه وقال:

– القاتل أسرع منا يا أسامة، علينا أن نتحرك أسرع.

– أرغب في سؤال واحد يا أفندم.

– تفضل.

– كيف عرفت أن هناك اتصالات بين زكي وعمران، قبل وفاة القتيلة؟

– دَعْ هذا السؤال الآن، فسوف أشرح لك فيما بعد أشياء كثيرة.

(١٦)

في مكتب محمود، كانت نادية تجلس رابطة الجأش، وتظهر على وجهها أمارات الثقة والقوة، فبدأ محمود كلامه قائلًا:

– هل علمتِ بخبر مقتل عمران بواب ڤيلا مديحة؟

امتقع وجهها، واهتز فنجان قهوة كانت تحمله في يدها، وقالت والذعر يكسو صوتها:

– ماذا؟ كيف حدث هذا؟

– هذا ما نحاول أن نعرفه.

"لم يخبرها محمود، بأن طليق مديحة هو المتهم الرئيسي في مقتل عمران؛ حتى تظل في حالة التوتر التي انتابتها منذ سماعها للخبر، فيستطيع أن يأخذ منها المعلومات كما يريد".

واصل محمود أسئلته قائلًا:

– لا بد أن تتأكدي أننا أمام قاتل لن يتورع عن عمل أي شيء حتى لا ينكشف أمره، وبالأمس فقط حذرت عمران؛ لأنه كان يخفي عني معلومات يعرفها، لكنه للأسف لم يستمع لتحذيري، فكانت تلك نهايته، فرجاء يا مدام أن تخبريني بالحقيقة في كل سؤال أسأله لكِ.

باستسلام شديد ردّت نادية وقالت:

– أنا تحت أمرك يا أفندم.

– أخبرتني أن يوم مقتل مديحة كان يوم زواجها، فهل هذا صحيح؟

– نعم، صحيح.

– هل لديكِ أي معلومات عن العريس؟

– لا.

– كيف وأنتِ أقرب صديقات القتيلة؟ بل إنها أرادت أن تكوني أول من يعرف بالخبر، كما ذكرتِ لي من قبل!

– أنا نفسي لا أعرف السبب، بل عاتبتها أيضًا لأنها لم تخبرني بنبأ زواجها إلّا يوم الزواج.

– وبماذا بررت لكِ تصرفها؟

– قالت إن ظروف الزواج تطلبت تلك السرية؛ حتى تتمكن من إتمامه، وظلت تعتذر وتؤكد لي إنني سأعذرها عندما تحكي لي فيما بعد.

– ألم تسأليها عن اسم العريس؟ أو ماذا يعمل؟ أو كيف تعرفت عليه؟ أقصد أشياء من هذا القبيل.

– سألتُها عن كل تلك الأسئلة، لكنها راوغت وتهربت ولم تجب على أيٍّ منها، وقالت إني سأعرف كل شيء في حينه.

– ألم تسأليها عن تخطيطها للفرح؟

– سألتها وقالت إن عقد القران سيتم في ڤيلتها مساءً.

– ألم تدعوكِ لحضور عقد قرانها وأنتِ كنتِ أقرب صديقاتها؟

– لا، حتى عندما عرضت عليها مساعدتي، رفضت وقالت إنها رتبت كل شيء.

– بعد أن أغلقتِ معها الخط، ماذا دار برأسكِ؟

– عفوًا، لم أفهم السؤال؟

اعتدل محمود في جلسته وقال:

– هل كانت كل أجوبتك السابقة صادقة؟

– أقسم أني أخبرتك بالحقيقة.

– عظيم، هل ترين تصرفات مديحة معك بخصوص زواجها تصرفات طبيعية؟

– بالطبع لا.

– عندما تحدث أمامنا تصرفات غير طبيعية، نجلس مع أنفسنا، ونحاول أن نجد لها تفسيرًا، وهذا جوهر سؤالي لكِ، أظن أنكِ فهمتِه الآن.

– بالتأكيد فهمت.

ثم سكتت لحظات وأردفت:

– بالفعل اندهشت جدًّا من تصرفاتها، وظللتُ طويلًا أفكر، ولكني لم أستطع أن أهتدي إلى سبب تصرفاتها.

– هل حكيتِ لزوجك هذه الحكاية؟

ردّت نادية بطريقة محتدة:

– ولماذا أحكي له، هذا أمر بخصوص صديقتي ولا شأن لزوجي به.

وبلهجة بها قليل من التعجب، ردَّ محمود:

– وهل غريب أن تحكي له أن صديقتك ستتزوج؟

تلعثمت نادية قليلًا وقالت:

– ليس غريبًا بالطبع، ولكن عمر لا يهتم بشؤون صديقاتي.

– ألم تذكر لكِ القتيلة ولو مرة واحدة، شيئًا عن هذا العريس، وأنتِ كما أخبرتني سابقًا، كنتِ على اتصال بها بصفة يومية.

فكرت نادية قليلًا وقالت:

– لا، لم تذكر.

– ألم تقترحي عليها قط فكرة الزواج، بسبب كونها تعيش وحيدة؟

– نعم تحدثت معها أكثر من مرة.

– وماذا كان رأيها؟

– كانت رافضة لفكرة الزواج تمامًا.

ثم سكتت لحظات وفكرت، وقالت:

– لكنها منذ فترة بدأ حديثها عن الزواج يختلف.

– منذ متى؟

– لا أذكر على وجه التحديد.

ثم شردت قليلًا وقالت:

– تذكرتُ الآن، قبل عيد الحب، أي منذ نحو خمسة شهور، كانت مبتهجة جدًّا، وقالت إن احتفالات عيد الحب التي تراها في كل مكان، جعلتها تشتاق إلى الزواج مرة ثانية، ولكني وقتها ظننتها تقول هذا من باب الدعابة، وليس أكثر، ولم نتحدث في الموضوع مرة أخرى.

– هل أخبرتكِ أن ابنها مهندًا حضر إلى مصر منذ شهرين تقريبًا؟

– نعم.

– هل أخبرتكِ عن سبب حضوره؟

– قالت إنه حضر لبعض الأمور الشخصية لديه.

– هل علمتِ أنها أعطت البواب والشغالة إجازة أسبوعًا في فترة وجوده؟

– لا، فأنا كنت قليلة الزيارات لمنزلها، لأنها هي مَن اعتادت زيارتي في منزلي.

– ومتى كانت آخر مرة زارتكِ في منزلك؟

– لا أتذكر تحديدًا، فهي كانت تزورني كثيرًا.

– لكنك كنتِ تتصلين بالبواب عندما تحتاجين إليها، ألم تتصلي به في هذا الأسبوع؟

– لا، لم أتصل به، وللعلم أنا كنت أتصل به فقط في حالات الضرورة القصوى، عندما أفشل في الوصول لها، وعندما علمت بوجود مهند معها، لم أتصل بها ولا مرة؛ حتى تتفرغ لابنها، وهي من كانت تتصل بي في تلك الفترة.

سكت محمود لحظات، وساد صمت رهيب في الحجرة، قبل أن ينظر بحدة في عيني نادية، ويسألها قائلًا:

– هل خفتِ يومًا على زوجك من مديحة؟

استطاعت نادية بصعوبة، أن تخفي توترًا بدا على وجهها، وقالت:

– هل أخشى على زوجي من أختي؟

ردَّ محمود بلكنةٍ بها مسحة سخرية:

– وهل أختُك من الممكن أن تُخفي عنكِ أي شيء عن تفاصيل رجل ستتزوج به، بل لا تدعوكِ حتى لحضور عقد قرانها؟!

ما إن اختتم محمود ردّه الأخير، حتى وقف ومدَّ يده مصافحًا نادية، معلنًا بذلك انتهاء التحقيق معها.

***

"أنا لا أفهم شيئًا"، قالها أسامة لمحمود بعد مغادرة نادية، وبدا كالطفل الذي يتوسل لأبيه أن يشرح له أمرًا لا يفهمه، ولكن محمود فاجأه قائلًا:

– وأنا أيضًا، ثم أردف يقول:

– أريد سالمًا اليوم في مكتبي الساعة السادسة مساء.

سكت لحظة وأكمل:

– وماذا عن زوجة عمران، هل وجدتم لديها موبايل؟

– نعم، وجارٍ فحص المكالمات التي تمت معها أمس.

– أريد هذه المعلومات سريعًا، فأنا على يقين أن الجاني اتصل بها وهددها؛ ولذا فهي تخاف أن تتكلم.

– إن شاء الله في خلال ساعات قليلة، ستكون المعلومات أمام سيادتك يا أفندم.

– هل هناك أخبار عن التحقيق مع زكي في النيابة؟

– ما زالت النيابة تحقق معه، وبالمناسبة يا أفندم، منذ أمس وأنا أرغب أن أسألك " لماذا لم تتهم أيضًا مهند بقتل عمران، بعد أن علمت أن عمران حاول ابتزازه، فهو بذلك لديه دافع مباشر للقتل.

ولكن زكيًّا، اعتمدنا في اتهامه على العلاقة المريبة التي جمعته بعمران، ولكننا نجهل دافعه للقتل، فقط نعرف دافعًا غير مباشر، وهو محاولته حماية ابنه من ابتزاز عمران؟"

– هناك أمر يدور في ذهني، ولكنه لم يختمر بعد، فلنؤجل الإجابة عن هذا السؤال الآن، وأعدك بأني سأجيبك عنه، ولكن عليك بالدعاء أن تكون الإجابة قريبًا.

استأذن أسامة في الانصراف، وقبل وصوله إلى الباب، استوقفه محمود وسأله:

– ماذا عن التقرير الذي طلبته بشأن القتيلة؟

– سأُتمه الليلة بإذن الله، ويكون صباحًا أمام سيادتك.

– ولكن أهم شيء، معرفة أي معلومات عن عريس مديحة الغامض، لأننا إذا وضعنا يدنا عليه، سنضع يدنا على حل الجريمة.

– التحريات تجري على قدمٍ وساق يا أفندم، ثم استأذن وانصرف.

أخرج محمود من جيبه رسالة مديحة، ونظر إليها، وهمس:

"وأنا لو حللت لغز الرسالة، فسأعرف من قتلها".

***

دخلت نادية ڤيلتها، وجلست على أول كرسي في طريقها، وألقت بشنطة يدها إلى جوارها بطريقة عصبية، ودخل عليها زوجها، فلمَّا وجدها على هذه الحالة سألها:

– ماذا حدث؟ ما سبب هذه العصبية؟

رمقته بنظرةٍ كلها حقد وغضب، وقالت:

– كل ما بي من مصائب أنت السبب فيه، والآن تأتي وتسأل بكل برود لماذا هذه العصبية! سكتت لحظات والتقطت أنفاسها المتلاحقة، وقالت:

– عمران بواب ڤيلا مديحة وجدوه مقتولًا أمس، وأنا عائدة لتوي من تحقيق في البوليس، استمر أكثر من ساعتين.

كان عمر يتحدث لزوجته وهو واقف أمامها، فلمَّا سمع ما قالته، ارتمى على كرسي قريب منه، ونظر إلى زوجته وقد اصفرَّ لونه، ولم يستطع أن ينطق بحرف، فانتهزت زوجته حالة الانهيار والفزع التي هو عليها، وباحت بما أضمرته في نفسها من زمن بعيد، فقالت: – منذ زواجي منك وأنت رجل تافه، تجري وراء نزواتك، لم ترَ امرأة إلّا وغازلتها، أجبرتني بتصرفاتك الصبيانية أن أعتزل كل صديقاتي، وكنت مجنونة عندما صدقتُ كلامك بأنك تغيرت.

وقتها بدأتُ أبحث لي عن صديقة أعوِّض بها ما ضحيتُ بهنَّ بسببك، ووجدت مديحة، ولم أجعلها تدخل مرة واحدة إلى البيت؛ حتى لا تعود لعاداتك القديمة مرة أخرى، وفي المرة الوحيدة التي زارتني فيها يوم عيد ميلادي الماضي، إذا بك تعود إلى ماضيك القذر، وتقع في غرامها.

سكتت وظلت ترمقه بنظرات احتقار، وواصلت تقول:

حتى كان اليوم الموعود، وتضع نفسك في تلك الورطة، وللأسف أضطر لأن أحميك، وأنت لا تستحق، ولكني مضطرة لأن أحمي بيتي وأسرتي.

قام زوجها يمشي وهو مطأطئ رأسه، ولم ينطق بحرف.

(١٧)

وصل زكي في سيارة الترحيلات إلى سرايا النيابة، وكان في شرود دائم، فوجد هويدا زوجته تنتظره هناك، وكانت في حالة نفسية سيئة للغاية، ودار بينهما الحوار التالي:

– ماذا حدث؟ أنا لا أفهم شيئًا؟ ما علاقتك بعمران هذا؟ وكيف يتهمونك بقتله؟

أخذ زكي يهدئ من روعها، ويحاول أن يطمئنها، لكن حالته النفسية هو الآخر والتي بدت على قسمات وجهه، لم تجعله ينجح في تهدئتها، بل زادت من توترها، فواصلت أسئلتها له وقالت:

– عرفت من مهند، أنك تعرف هذا الرجل من فترة طويلة، فما قصتُك معه؟

ردَّ زكي بعصبية:

– أرجوكِ يا هويدا، يكفي التحقيقات التي تجريها معي الشرطة، والتحقيقات التي ستجريها معي النيابة الآن، أريد أن أستريح من الأسئلة قليلًا.

– سامحني يا حبيبي، ولكن أريد أن أطمئن عليك.

– إن شاء الله، ستظهر الحقيقة قريبًا.

همست له هويدا بصوت منخفض قائلة:

– وهل أخبرتهم بشيء عما حدث يوم مقتل مديحة؟

فردَّ عليها زكي همسًا هو أيضًا وقال:

– لا، وإياكِ أن تذكري شيئًا لمهند مهما يحدث.

ردّت هويدا مذعورة:

– ماذا تقصد من "مهما يحدث"؟

– أنصتي جيدًا، دليل براءتي سيظهر فقط عندما يقبضون على الجاني الحقيقي الذي قتل عمران، وأنا أرى الضابط محمود غاية في الذكاء، وأثق أنه سيصل إلى الجاني قريبًا، ولكن إذا قلت لهم الآن عن حقيقة معرفتي بعمران، أو عما حدث يوم قتل مديحة، فسوف أثبت تهمة قتل عمران على نفسي، بل سيتهمونني أيضًا بقتل مديحة، ولن يبحثوا أبدًا عن القاتل الحقيقي، فدعينا نتحمل قليلًا حتى تزول تلك الغمة.

ظلت هويدا تبكي، والحارس الخاص يجذب زكيًّا من يده، ويدخل به مكتب وكيل النيابة.

في هذه الأثناء، وصل مهند بصحبة الأستاذ خالد المحامي، والذي أسرع بالدخول لمكتب وكيل النيابة؛ حتى يحضر التحقيق مع زكي.

***

استمر التحقيق مع زكي قرابة الثلاث ساعات، لم يذكر خلالهم كلمة واحدة تزيد عما قاله في تحقيق المباحث، وبالرغم من المحاولات المضنية التي بذلها معه وكيل النيابة؛ للحصول منه على أي معلومات تفسر علاقته بعمران، فقد فشل تمامًا، حيث التزم زكي الصمت التام، مما دفع المحامي أن يطلب من وكيل النيابة، أن ينفرد بموكله لمدة خمس دقائق، فوافقه؛ لعله ينجح في إقناعه بالكلام.

جلس المحامي إلى جانب موكله في ركن جانبي داخل المكتب، وأفهمه أن بقاءه صامتًا، سيزيد من صعوبة موقفه، إلى جانب أن موقفه ازداد صعوبة بالفعل، بعد محاولة ابتزاز القتيل لمهند، وأنه تكفل بحل الأمر، بناءً على اعترافات مهند.

ولكن باءت كل محاولات المحامي بالفشل، وبقيَ زكي على صمته، وكان كل ما نطق به أن قال: "أنا أعلم بصالحي".

عاد المحامي إلى وكيل النيابة، وأبلغه أنه فشل في إقناع موكله بالكلام، وبرر له هذا بتعرُّضه لصدمةٍ نفسية مما حدث، في محاولة لكسب تعاطفه؛ ليقوم بتحويله إلى مستشفى بدلًا من بقائه في السجن، إلّا أنه لم يلتفت لهذا التبرير، وقرر حبس زكيًّا أربعة أيام على ذمة التحقيق.

***

خرج زكي من مكتب وكيل النيابة برفقة حارسه، ومن ورائهما كان يمشي خالد المحامي، وعلى وجهه تبدو خيبة الأمل، والتي مُنِيَ بها من جراء تصرفات موكله، وكانت هويدا زوجة زكي وابنه مهند ينتظران في الخارج، وبمجرد أن لمحا زكيًّا اندفعا نحوه، ولَمَّا علمت هويدا بنبأ حبس زوجها، انهارت في البكاء، وأخذ المحامي في تهدئتها.

بعد أن ودّعا زكيًّا وقبل انصرافهم جميعًا من سرايا النيابة، أبلغهما المحامي بتصرفات زكي الغريبة، والتي تمثلت في التزامه الصمت التام في أثناء التحقيق، وبيَّن لهما أنه بهذه الطريقة سيزيد من موقفه سوءًا، فثار مهند على تصرفات أبيه، وأبدى اندهاشه منها، أمَّا هويدا فلم يتحرك لها ساكن.

***

رن جرس تليفون العميد محمود، وكان لا يزال ينظر إلى رسالة مديحة، وبمجرد أن ردَّ، جاء صوت اللواء الشوربجي غاضبًا، يقول:

– ما تلك الأخبار التي وصلتني يا محمود؟ أحقًّا هناك قتيل جديد؟

– للأسف يا أفندم.

– وهل قبضتم على الفاعل؟

– هناك متهم يتم التحقيق معه الآن في النيابة.

– ماذا تقصد بمتهم؟

ثم أردف بصوت حانق:

– هل هو الفاعل أم لا؟

– بدايةً، أنا من قدمته للنيابة بتهمة قتل البواب، ولكن بداخلي شيء يُحدثني أنه لم يفعلها؛ لذلك فضلت أن أصفه بالمتهم.

– هذا جيد، لأن الإعلام لا حديث له إلّا عن هذه القضية، وتقديم متهم، أفضل من ترك القضية للمجهول، ولكن أرجوك أن تُسرع يا محمود في حل القضية، قبل أن يسوء موقفنا أكثر.

ردَّ محمود، وصوته يكسوه قليل من الحدة:

– هذه واحدة من أصعب القضايا التي واجهتُها على مدار تاريخي الوظيفي، بل لا أبالغ إن قلت إنها قد تكون أصعبها على الإطلاق، وأنا وفريق

البحث معي لا ندخر ذرة جهد للوصول للجاني، وعلى إدارة العلاقات العامة في الوزارة، أن تتولى هي شرح الأمر للإعلام بشفافية كاملة، فنحن فعلًا نواجه قضية صعبة جدًّا، وحلها لن يكون بين ليلة وضحاها، بل قد يمتدُّ أيامًا، وربما أسابيع.

لمس اللواء الشوربجي الغضب والتوتر في صوت محمود، فأراد أن يُهدئ من انفعاله، فقد كانت ثقته به لا حد لها، ويعلم أنه لو فشل في حل القضية، فلن ينجح مخلوق في حلها، فقال له بصوت هادئ:

– أنا أعلم أنك تبذل قصارى جهدك، ولكن تحمَّلني عندما أطلب مزيدًا من الجهد، وأنا على يقين أنه مهما يكن ذكاء المجرم فأنت الأذكى، فلا تنسَ ذلك أبداً.

هدأ محمود، وشكر اللواء الشوربجي، وأغلق الخط معه بعد أن وعده أنه لن يغمض له جفن قبل أن يُقدم الجاني للعدالة.

(١٨)

في السادسة تمامًا، جلس سالم أمام العميد محمود، وكان الثبات يبدو عليه بدرجة كبيرة، وبدأ محمود التحقيق وقال:

- هل علمتِ بما حدث لعمران؟

- لا، ماذا حدث؟

- وُجِدَ مقتولًا بطلق ناري، في منطقة قريبة من ڤيلا ابنة عمك.

بدا تأثر سالم بالخبر بسيطًا وقال:

- وهل عرفتم من قتله؟

- نعم، طليق ابنة عمك القتيلة.

هنا وقف سالم دون أن يشعر وقال:

- زكي! زكي هو القاتل! لماذا يقتل عمران؟

فطلب منه محمود أن يهدأ وقال:

– لا نعرف السبب حتى الآن، ولكننا سنعرفه، وبالمناسبة، قلت لي من قبل وبالحرف الواحد "عمران شخص يُعتمد عليه"، فماذا كنت تعني بهذه العبارة؟

فكر سالم قبل أن يردّ وقال:

– كنت أقصد أنه ذكي، ولو كلفته بأي أمر، يستطيع أن ينفذه لك.

– أمر مثل ماذا؟

– مثلًا لو كلفناه بشراء أشياء من محل في وسط البلد لا يعرفه جيدًا، يستطيع أن يذهب ويسأل حتى يصل لما يريده، لم يكن من الشخصيات التي تقول لا أعرف، وهذا ما قصدته من أنه شخص يُعتمد عليه.

– هل احتجته من قبل في أمر خاص بك؟

وعلى الفور ردَّ سالم:

– لم يحدث قط.

– هل كنت تراه أمينًا؟

– نعم.

– هل اشتكت منه القتيلة لك يومًا ما؟

– لا، لم تشتكِ منه لي قط.

– هل كان طماعًا؟

– لا.

– هل كنت على اتصال به بصفة مستمرة؟

– ليست بصفة مستمرة، ولكن أحيانًا، عندما كنت أحتاج مديحة لأمر ضروري ولا أتمكن من الوصول إلى تليفونها، وهذا كان يحدث قليلًا.

– هل علمتَ يومًا بأن هناك علاقة بينه وبين زكي؟

– لا، على الإطلاق، بل إني ما زلتُ مذهولًا منذ أن عرفت بوجود علاقة بينهما.

وبشكل مفاجئ، انتقل محمود من الأسئلة عن عمران وسأل:

– هل كنت تعلم أن مديحة ستتزوج يوم مقتلها؟

ارتبك سالم بشدة، وجاوب بتلعثم واضح:

– لا، لا أعلم.

- كيف وأنت القريب الوحيد لها، بل أنت قلت إنها كانت تعدُّ كشقيقتك؟

- نعم كانت كشقيقتي تمامًا، ولكنها لم تخبرني بهذا الأمر.

نظر محمود بدقة وحدة في عيني سالم، وقال بصوت حاسم:

- هل أخبرتني في كل أجوبتك بالحقيقة؟

اهتز سالم من نظرة محمود وصوته، وقال بصوت يكسوه قليلًا من الفزع:

- بالطبع يا أفندم.

سمح له محمود بالانصراف، ثم أرجع رأسه للخلف؛ ليسندها على ظهر كرسيه، وقال مخاطبًا أسامة دون أن ينظر إليه:

- هل تعلم لماذا أجد هذه القضية من أصعب القضايا التي واجهتُها؟

- لماذا يا أفندم؟

- لأن الكل فيها يكذب.

ثم سكت لحظات وقال:

- "كلهم كاذبون".

***

رن جرس تليفون أسامة، وكان لا يزال في مكتب محمود، وكان المتصل هو النقيب أيمن معاون المباحث، وبعد أن استمع له للحظات، شكره وأغلق الخط، ثم نظر إلى محمود، وقال:

– هناك رقم تليفون واحد اتصل بزوجة عمران، الساعة الحادية عشرة مساء.

– مَن؟

– تليفون عمران.

همهم محمود ثم قال:

– وهذا يؤكد ما أخبرتك به من قبل، لقد تلقت تهديدًا من الجاني، وأظن أن الجاني لا يعرف رقم تليفونها، ولكنه وصل إليه عن طريق تليفون زوجها.

– تمام يا أفندم، نظريتك سليمة جدًّا.

شرد محمود قليلًا، وقال:

– لكن هناك أمرًا لا أفهمه.. أمرًا يحيرني بشدة.

ثم قام وغادر المكتب مع أسامة، والذي أصبح في معظم الأحوال، يعيش في حالة من الحيرة بسبب غموض محمود الذي لا ينتهي.

***

عاد محمود إلى منزله، وكالعادة عندما يكون مشغولًا في قضية، تتولى زوجته توفير سبل الهدوء وعدم الإزعاج له بأي صورة من الصور، حتى أنه لا يجلس مع ابنيه أكثر من خمس دقائق، ثم يتناول عشاءه، وبعدها يغلق على نفسه غرفة المكتب، بعد أن تضع زوجته أمامه فنجانا من القهوة.

أخرج مفكرته الخاصة، وإلى جانبها وضع رسالة مديحة التي يقرؤها كل يوم مرتين أو ثلاث على الأقل؛ لعله يهتدي منها لشيء، ولكنه للآن ما زال يقف عاجزًا على أن يفهمها، ثم بدأ في تدوين الملاحظات منذ لقائه مع مهند أمس، فكتب:

١- مهند يؤكد أن عريس أمه نصاب.

٢- انتهت زيارة مهند إلى مصر بمشاجرة عنيفة بينه وبين أمه.

٣- عمران يهدد مهند بقصة حضوره لمصر من شهرين.

٤- مهند يبلغ أباه بمحاولة ابتزاز عمران له، وأباه يطمئنه.

٥- عمران على علاقة بزكي من قبل وفاة مديحة.

٦- نادية لا تعرف شيئًا عن العريس - نادية لا تذهب لمنزل مديحة كثيرًا، بل مديحة هي من تذهب إليها - نادية لم تحكِ لزوجها بخبر زواج مديحة - نادية لا تخشى على زوجها من مديحة. ثم اختتم كتابته عن نادية وكتب: "نادية كاذبة".

٧- استقبال سالم لنبأ قتل عمران بانفعال بسيط.

٨- ذهول سالم عند علمه بوجود علاقة بين زكي وعمران.

٩- سالم يقول إنه لم يلجأ لعمران في أمر شخصي له قط، ويراه غير طماع.

كان الفجر قد بدأت تلوح أنواره في الأفق، فترك محمود قلمه ومفكرته، بعد أن ظل يكتب في الجزء الخاص بالتحليل كل ما استنتجه من الملاحظات التي دوَّنها، وقام ودخل إلى غرفة نومه، وألقى نفسه على الفراش، وراح في سباتٍ عميق.

(١٩)

استيقظ العميد محمود في العاشرة صباحًا، وضع نفسه تحت الدش؛ حتى يكتمل استيقاظه، استعد للنزول وارتدى ملابسه، وفي أثناء تناوله الإفطار مع زوجته، اتصل بمهند، وأخبره أنه سيمر عليه في الڤيلا بعد ساعة، وبعد ذلك اتصل بأسامة، وسأله إن كانوا توصلوا لأي معلومة بخصوص شخصية عريس مديحة، ولكنه أجابه بالنفي، فطلب منه ترتيب تحقيق مع عمر، الساعة السادسة مساءً بالمديرية.

سألت ناهد زوجها عن أخبار القضية قائلة:

- هل اقتربت من الوصول للجاني؟

فردَّ محمود متهكمًا:

- أي جانٍ تقصدين؟

اندهشت ناهد وقالت:

– وهل هناك أكثر من واحد؟

– الآن أنا أحقق في جريمتي قتل، وليست جريمة واحدة.

– ولكن أليس هذا تشتيتًا لعقلك؟ لماذا لم تُنهِ القضية الأولى أولًا، ثم تلتفت بعد ذلك للقضية الأخرى؟

ضحك محمود وقال:

– هي قضية واحدة تمت بها جريمتا قتلٍ، وأرجو أن تُصلي وتدعي جيدًا ألّا تقع جريمة ثالثة.

فتح محمود باب الشقة، وانصرف تاركًا زوجته وهي لا تفهم شيئًا.

***

أشارت عقارب الساعة إلى الثانية عشرة، وكان محمود يجلس في صالون داخل ڤيلا مديحة، ينتظر مهندًا، بعد أن استقبلته هنية وسألته عما يودُّ أن يشربه، وبعد دقائق قليلة حضر مهند وتبادل معه التحية، فبدأ معه الكلام وقال:

– ما أخبار المهندس زكي؟

ردَّ مهند بنبرة محملة بالتهكم الممزوج بالغضب:

- أظنُّ أن كل المعلومات لدى سيادتك.

ردَّ محمود ولم يلتفت لأسلوب مهند:

- بالطبع، أنا أعرف أنه محبوس على ذمة التحقيق، ولكن أسألك عن أخباره الصحية والنفسية، وهل استطعت أن تقنعه بعدوله عن صمته؟

- للأسف لم أنجح.

- لقد حضرت اليوم لأقوم بمعاينة أخرى للڤيلا، وعلى الأدق للدور العلوي، فهل لديك مانع؟

- على الرحب والسعة، ثم قام واصطحبه إلى الدور العلوي، وكانت الڤيلا تتكون من طابقين، يوجد بالطابق الأرضي استقبال واسع، يضم خمس غرف متصلة، بالإضافة إلى حمام ومطبخ.

أمَّا الطابق الثاني، فيحتوي على أربع غرف، اثنتين للنوم، إحداهما غرفة مديحة، وتحتوي على حمام داخلي، والأخرى أقل حجمًا، وهناك غرفة مكتب بها مكتبة صغيرة، تحتوي على كتب في مجالات مختلفة، والغرفة الأخيرة غرفة معيشة بها طقم أنتريه وتليفزيون، وتتوسط الأربع غرف، صالة صغيرة بها كنبة وكرسيا فوتيه وطاولة زجاجية، وبهذا الطابق أيضًا، يوجد حمام ومطبخ صغير.

استغرق محمود في معاينة الطابق الثاني قرابة الساعة، حاول أن يجد أي شيئًا، يهتدي به في هذه القضية، وركز بحثه في غرفة المكتب، حيث ظل يبحث بين صفحات الكتب لعله يجد أي شيء بداخلها.

لكن أمرًا غريبًا حدث معه ولم يفهمه، فقد ظل واقفًا أمام صورة مديحة طويلًا، رغم أنه رآها من قبل في معاينته الأولى، ولكن هذه المرة شيء استوقفه أمامها ولم يعرف السبب، حتى أن مهندًا قد لاحظ هذا، فسأله بطريقة مستنكرة إن كان يرى شيئًا غريبًا في الصورة، مما جعله يشعر بحرج شديد، فقد كانت مديحة تبدو غاية في الجمال في تلك الصورة، ولم تكن صورة حديثة لها، ولكنها تبدو وقتها في منتصف الثلاثينيات، فتهرَّب من الرد بلباقة، وشكره على تعاونه، واصطحبه مهند إلى باب الڤيلا الخارجي، وهناك توقف وسأل مهندًا:

– ما قصة فرامل سيارة والدتك؟ أبلغوني أن أحدًا عبث بها.

– نعم، ولكني أحضرت من أصلحها.

– هل عرفتَ من فعل هذا؟

– للأسف لا.

– هل تشكُّ في أحد؟

- الحقيقة لا.

- هل تظن أن ما حدث للسيارة كنت أنت المقصود منه، أم كانت المرحومة والدتك هي المقصودة؟

- حقيقة الأمر لا أستطيع أن أؤكد، ولكن ما أؤكده أنه لا يوجد من يكرهني هنا.

- هل تقصد أن لأمك من يكرهها؟

- لا أظنُّ، ولكن أيضًا طول غيابي عنها، جعلني لا أستطيع أن أجزم بأي شيء.

- هل كانت السيارة موجودة داخل الجراج الخاص بها داخل الڤيلا؟

- منذ حضوري لمصر وأنا أراها موجودة في الشارع أمام الڤيلا، ولمَّا سألت عمران عن سبب ذلك، أبلغني أن والدتي كانت قد وضعتها في هذا المكان ليلة مقتلها، ولم يحركها أحد منذ هذه اللحظة.

- ولماذا لم تضع أمك السيارة داخل الجراج؟

- لا أعرف.

- هل سألت عمران عن السبب؟

- لم أسأله، لأن الأمر لم يهمني كثيرًا.

- هل كان من عادتها أن تترك سيارتها خارج الڤيلا؟

- طوال فترات إجازاتي التي كنت فيها هنا، رأيتها حريصة دائمًا على وضعها داخل الجراج، حتى عندما كنت أستخدمها، كانت تؤكد عليَّ بضرورة تركها في الجراج.

- هل لي أن ألقي نظرة على الجراج؟

- بكل سرور.

كان الجراج عبارة عن ممر طويل، بابه الحديدي موجود على يمين البوابة الرئيسة للڤيلا، ويمتد هذا الممر بطول الڤيلا، وتوجد غرفة البواب في نهاية الممر، ويفتح بابها على الممر، بالإضافة إلى وجود شباك خشبي صغير بالغرفة مفتوح مباشرة على الممر، ويكفي الجراج لسيارة واحدة، وبمجرد الدخول من باب الجراج الخارجي، يوجد ممشى جانبي يصل إلى الباب الداخلي للڤيلا.

لفت انتباه محمود، أن غرفة البواب مغلقة وعليها قفل حديدي، فسأل مهند عن سبب ذلك، فأخبره أن زوجة عمران عادت بولديها إلى قريتها، ولن تعود ثانية.

سكت محمود قليلًا، ونظر إلى عيني مهند بحدة، وقال:

– هل يمكنك أن تجاوبني بصدق على ما سوف أسأله؟

ردَّ مهند بشيء من العصبية:

– لقد جاوبتك بكل صدق على أسئلتك السابقة.

أخفض محمود من نبرة صوته قليلًا، وقال:

– هل ترى عمران يستحق القتل؟

ودون أي تردد، ردَّ مهند:

– نعم، يستحق.

(٢٠)

داخل غرفة مكتب أنيقة في إحدى العمارات الإدارية بحي مصر الجديدة، كان محمود يرتشف من فنجان قهوة بتلذذ، ويمتدح نوع البن للأستاذ خالد المحامي، ثم أردف قائلًا:

– أشكرك مرة أخرى على تفهمك لهذه المقابلة، وتفهمك أيضًا لطلبي أن تكون سرية.

– مرحبًا بك يا أفندم في أي وقت، فنحن جميعًا نمتهن مهنًا هدفها الوحيد خدمة العدالة.

– اسمح لي أن أدخل مباشرة في الموضوع، فسبب حضوري لك، أني عرفت أن رحلة مكتبكم مع أسرة السيدة مديحة تمتد لأكثر من أربعين عامًا، بدأت مع والدك وامتدت للآن، فقاطعه خالد وقال:

– هذا صحيح تمامًا.

استطرد محمود يقول:

– وجرت العادة مع الأثرياء، أن تنشأ علاقة صداقة بينهم وبين محاميهم؛ لأنه مع مرور الوقت يصبح مستشارهم في كل أمور حياتهم، فتعمل هذه الثقة على توليد صداقة بصورة تلقائية، فهل تتفق معي في هذه الرؤية؟

– أتفق تمامًا.

– إذن تتفق معي على أنه كانت هناك صداقة بين والد مديحة ووالدك في يوم من الأيام، أو دعني أُقُلْها بصيغةٍ أخرى، إنه أصبح يأتمنه على كثير من أسراره.

– حدث هذا بالفعل.

– وهذا يجعلني أسألك، هل اعترض والد مديحة على زواجها بالمهندس زكي؟

– عندما تزوجت مديحة بزكي، أي من نحو ٣٠ عامًا، كان عمري وقتها ١٥ عامًا، فأنا لم أعاصر جيدًا هذه الفترة، وكنت أصغر من أن يحكي لي والدي، ولكن عندما كبرت وأصبحت أعمل في المكتب، عرفت فيما بعد من والدي، أن والد مديحة هو من أحضر لها زكي وزوجه لها.

– هل هو أحد أقاربه؟

– لا، كان وقتها مهندسًا صغيرًا، وكان يعمل في بناء إحدى العمارات التي يملكها والد مديحة، فنشأت بينهما معرفة، وأظنُّ أنه أعجب به، فزوَّجه ابنته.

– شهد الجميع أن مديحة كانت تتمتع بشخصية قوية، فهل كانت تستسلم لرغبات أبيها بهذه السهولة؟

– حقيقة الأمر لا أعرف.

– منذ متى وأنت تتعامل مع مديحة بصورة مباشرة؟

– منذ عشرين سنة تقريبًا، أي منذ وفاة والدي.

– هل كان والدها لا يزال حيًّا؟

– لا، توفي بعد زواجها بأقل من عام.

– هل تعرف كيف كانت حياتها مع زكي؟

سكت خالد قليلًا، وقال مبتسمًا:

– ألا يندرج هذا تحت بند أسرار الموكلين؟

اعتدل محمود وقال:

– لقد جئت بنفسي إلى مكتبك؛ لتتأكد أن هذا ليس بتحقيق على الإطلاق، وإنما هي محاولة للوصول لأي خيط يساعدني في الوصول للجاني، كما كنت

على يقين أن هناك ما هو أكثر من علاقة العمل تربطك بعائلة مديحة، أي إنك ليس بأقل مني حرصًا على الوصول للجاني حتى نثأر لها، فلهذا جئتك، بل طلبت منك عندما حادثتك تليفونيًّا أن تكون هذه الزيارة سرية؛ حتى تتأكد أن أجوبتك ستكون سرية، وفي النهاية أنت صاحب القرار في أن تجيب أو تصمت.

سكت خالد لحظات، وارتشف رشفة من فنجان قهوة موضوع أمامه، وقال:

– سمعت عنك كثيرًا يا محمود بك، وعن ذكائك اللامحدود في حل القضايا الغامضة، وبعد أن تكلمت معك، أصبحت على يقين بأن ما سمعته لم يكن سوى جزء من الحقيقة، وأنا سأخبرك بكل ما تريد أن تعرفه.

شكره محمود بشدة على كلامه الطيب، وسأله مرة أخرى عن علاقة مديحة بزكي.

فردَّ خالد على الفور:

– أقولها لك بكل صراحة، لم تكن السيدة مديحة على وفاق يومًا مع زكي طليقها.

– وما السبب في رأيك؟

– المال، كان دائمًا يحاول أن يستغل أموالها، فهو يتميز بالتهور الشديد، وتتميز هي بالكياسة والعقل، فلو كانت طاوعته في المشروعات التي كان يرغب في خوضها، لما بقيَ معها مليم واحد.

– وهل هذه الخلافات نشأت بعد الزواج مباشرة، أم بعده بفترة؟

– لا أستطيع أن أجزم، لأني كما قلت لك، صلتي المباشرة معها، بدأت منذ ٢٠ عامًا فقط، وهي متزوجة من ٣٠ عامًا، ولكن ما أستطيع أن أقوله لك، إنه في إحدى زيارتها لي وكانت غاضبة أشد الغضب من زكي، وجدتها تبكي وتتذكر أباها بغضب؛ لأنه حرمها شخصًا كانت تحبه، وزوَّجها بزكي، وبهذا تستطيع أن تقول، إنها لم تكن على وفاق معه من أول يوم زواج.

– هل خشيت على نفسها يومًا أن يقتلها زكي؟

فكر خالد قليلًا، وقال:

لا أستطيع أن أقول أنها خافت منه بشكل مباشر، ولكنها كانت تردد دائمًا أنه لا يتورع عن فعل أي شيء من أجل الحصول على المال، والحقيقة أني نصحتُها مرة أن تكتب كل ممتلكاتها باسم مهند، وأن يعلم زوجها بهذا، وبهذه الطريقة فلن يستفيد من موتها.

– وهل أخذت بنصيحتك؟

– لا، لم تفعل، ولكنها قالت يومها شيئًا غريبًا لم أفهمه، ولا أستطيع أن أنساه بالرغم من مرور ٢٠ سنة.

– ما هو؟

– شردت قليلًا، وقالت بالحرف:

"أنا ومهند عند زكي سواء".

وقف محمود، وشدَّ على يد خالد، وشكره جزيل الشكر على تعاونه معه، وبادله خالد التحية، وأبدى استعداده للمزيد من المساعدة في أي وقت، واصطحبه يوصله لباب المكتب، وفجأة توقف وقال:

– بالرغم مما قُلتُه لك يا سيادة العميد عن زكي، فإنَّ لديَّ إحساسًا أنه لم يقتل عمران.

ضحك محمود وقال:

– أنت لديك إحساس بأنه لم يقتل عمران، ولكن أنا على يقين.

***

عاد خالد بعد أن ودَّع محمودًا، وجلس على كرسي مكتبه، وأخرج سيجارة وأخذ ينفث دخانها بهدوء، وهو شارد يفكر، وظل كلام محمود عن يقينه ببراءة زكي من قتل عمران يرن في أذنيه، ثم تناول ورقة وكتب فيها:

١- هل صحيح محمود هو الضابط الأذكى؟

٢- هل التقط محمود الطعم الذي ألقيته له؟

***

في أحد المطاعم المطلة على النيل، جلس محمود يتناول الغداء، وكان يستمتع ببعض النسمات التي كانت تأتي إليه مباشرة من مياه النيل في هذا الجو الحار، ولكنه أراد أن يعطي رئتيه هدنة من هواء المكيفات؛ لتنعم بهواء طبيعي نقي، كانت الشمس قد انكسرت حِدَّتها وبات الجو أقل حَرًّا، كما أن حالته النفسية العالية خففت عليه من حرارة الجو.

رأى الظلام الدامس الذي يعيش فيه منذ بدء التحقيق في هذه القضية، بدأت تباشير نور تلوح في أفقه، فهو يستطيع الآن أن يقوم بعملية التحليل، ولكن لمعلومات وملاحظات يستطيع أن يخرج منها بشيء ذي قيمة.

وفجأة تذكر شيئًا أزاح البسمة من على وجهه، وهمس لنفسه يقول:

"لماذا وقفت طويلًا أمام صورة مديحة؟".

(٢١)

في تمام الساعة السادسة مساء، كان عمر يجلس أمام العميد محمود، ولم يطلب له في هذه المرة أي شيءٍ يشربه، بل تعمَّد أن يكون استقباله له بطريقة جافة؛ حتى يبث الرعب في قلبه، فهو منذ التقاه أول مرة، رأى شخصيته ليست بقوة شخصية زوجته، وبدأ حديثه معه قائلًا:

- هل علمت بوفاة عمران بواب ڤيلا مديحة؟

- زوجتي أبلغتني الخبر.

- وماذا كان انطباعك بخصوص هذا الأمر؟

- في الحقيقة اندهشت، وتساءلت: إن كانت هناك علاقة بين مقتله ومقتل مديحة، أم أنها حادثة منفصلة؟

- وهل وصلتَ إلى إجابة؟

- في الحقيقة لا.

- هل كنت تعرف عمران؟

- لا.

- أخبرتني أنك كنت كأخٍ لمديحة في مواقف عديدة، فهل هذا صحيح؟

- نعم.

- ولكن زوجتك تقول إنك لا تهتم بشؤون صديقاتها، فما تفسيرك لهذا؟

بدا على عمر الارتباك قليلًا، وقال:

- ربما زوجتي تقصد باقي صديقاتها، فأنا فعلًا لم تكن لي بهن أي علاقة، ولكن لأن مديحة كانت أقرب صديقة لها، فكانت تتميز عندنا بوضع خاص، حتى أن نادية نفسها كانت تطلب مني حل بعض المشكلات لها.

- وهل أخبرتك زوجتك بخبر زواج مديحة؟

ودون تفكير، ردَّ عمر:

- لا.

- أليس هذا غريبًا؟

وأيضًا دون تفكير، ردَّ عمر:

– ليس غريبًا؛ لأن نادية عرفت بهذا الخبر فقط صباح يوم الجريمة، وفي هذا اليوم كنت مشغولًا جدًّا في عملي، لدرجة أني عُدتُ للمنزل عند منتصف الليل، وكنت غاية في الإرهاق فلم أتحدث مع زوجتي في أي شيء، ونمتُ على الفور، وفي صباح اليوم التالي، علمت زوجتي بنبأ وفاة مديحة، فغطى هذا الخبر على أي موضوعات أخرى.

ردَّ محمود بنبرة تحمل بعض السخرية:

– إجابة منطقية، ثم سكت قليلًا وقال:

ما سبب اتصالك بمديحة يوم وفاتها؟

وللمرة الثانية بدا الارتباك على عمر، وقال:

– لا أذكر أني اتصلت بها يوم وفاتها.

– ولكن بيان شركة الاتصالات، أظهر أنك اتصلت بها يوم الوفاة صباحًا.

فكر عمر قليلًا، وقال:

– تذكرت، لقد طلبت مني أن أسأل لها عن تكاليف رحلة سياحية إلى باريس؛ لأنها تعلم أن لديَّ صديقًا يمتلك شركة سياحة، فاتصلت بها بخصوص هذا الأمر.

– وهل كانت تنوي أن تسافر بمفردها؟

– أظنُّ ذلك، لأنها كانت تستفسر عن تكاليف الرحلة لفرد واحد.

– هل شعرت زوجتك يومًا بالغيرة عليك من القتيلة؟

ردَّ عمر بسذاجة مفضوحة:

– كيف تشعر الأخت بالغيرة على زوجها من أختها!

نظر محمود إليه نظرة حادة، وقال:

– هل أُعجبتَ يومًا بمديحة؟

ردَّ عمر بصوت غاضب ومنفعل:

– ماذا تقصد بهذا السؤال؟

ردَّ محمود بكل هدوء:

– اهدأ يا أستاذ عمر، نحن في تحقيق رسمي، يحق لي فيه توجيه أي سؤال، ويحق لك الامتناع عن الإجابة، فلا داعي لانفعالك، وإن لم يكن السؤال يعجبك بهذه الصيغة، فسأضعه أمامك بصيغة أكثر وضوحًا؛ لعلها تُريحك.

وتنهد قليلًا وقال:

– هل أحببت يومًا مديحة؟

وبنفس انفعاله السابق ردَّ عمر:

– أعترض بشدة على توجيه هذا السؤال، ولن أجاوب عليه.

وبنفس هدوئه السابق، ردَّ محمود:

– لقد جاوبت بالفعل.

ثم رمقه بنظرة حادة وقال:

– يمكنك أن تنصرف الآن.

***

ضحك أسامة بشدة على حال عمر وهو يغادر المكتب في حالة من الدهشة والذهول، وتكلم وضَحِكُه لم يتوقف بعد:

– كنت عبقريًّا يا أفندم في طريقة إنهائك للتحقيق مع عمر، وقع عليه ردّك كالصاعقة.

ردَّ محمود مبتسمًا:

– لقد جاء ومعه أجوبة يحفظها عن ظهر قلب، لقَّنته إياها زوجته.

ثم سكت لحظات وقال:

– دعنا للأهم، هل هناك أي أخبار عن هذا العريس المجهول؟

– في الحقيقة يا أفندم، أنا بدأت أشك أن هناك من الأصل قصة زواج أو عريس، لقد أصبحنا نطلق عليه أنا وزملائي في فريق البحث "العريس الشبح"، فنحن حتى الآن لم نعثر على أي مخلوق شاهد مديحة برفقته، أو حتى سمع منها عنه.

– معك حق يا أسامة، فالأمر فعلًا غريب، ولكن لديَّ فكرة دعنا نبدأ في تنفيذها لعلها تفيد. وأمسك بالتليفون، واتصل باللواء الشوربجي، ودار بينهما الحوار التالي:

– كيف أحوالك يا محمود؟ هل من جديد؟

– الحمد لله يا أفندم، ليس هناك جديد حتى الآن، ولكن أريد أن أطرح على سيادتك فكرة قد تساعدنا.

– ما هي؟

– أريد تسليط الضوء إعلاميًّا على القضية بصورة أكثر، وخاصة في الإعلام المرئي.

– ماذا تقول يا محمود! أنا أريد أن ننتهي من هذه القضية؛ لنتخلص من إزعاج الإعلام، فتأتي وتطلب مني أن أذهب بنفسي للإعلام! بل تطلب مني أن أطالب بمزيد من تسليط الضوء على القضية، أنا لا أصدق أنك تطلب مني هذا!

– منذ البداية، أخبرتك يا أفندم أننا بصدد قضية ليست كباقي القضايا، وأننا نواجه مجرمًا ليس كباقي المجرمين، ولكنه مجرم عبقري وداهية، فهذه ليست جريمة قُتلت فيها امرأة ثرية على يد أحد العاطلين أو البلطجية من أجل سرقة بعض المال، بل هي جريمة تحيط فيها الشبهات حتى الآن بمجموعة أفراد من علية القوم، ويجب أن يعلم المجتمع ذلك.

أنا هدفي من وراء الإعلام، احتمالية ظهور شخص يتعرف إلى شخصية القتيلة، ويكون قد شاهدها مرة مع العريس الذي نبحث عنه، والذي أصبح رجال المباحث يلقبونه بالشبح؛ لأننا لم نجد أحدًا سمع عنه، أو رآه حتى الآن.

وحتى لو كان هذا الاحتمال ضعيفًا فليس أمامي سواه، ومن ناحية أخرى، عندما يعلم المجتمع مدى صعوبة القضية، سيلتمس لنا العذر للتأخر في الوصول للجاني.

– بدأتُ أقتنع بوجهة نظرك، ولكن ألا تخشى أن تجد آلافًا من الناس يجيئون لك يوميًّا، يخبرونك كذبًا أنهم رأوا القتيلة برفقة شخص، ويعطونك أوصافًا وهمية، مما يساعد على المزيد من إضاعة الوقت؟

– بالتأكيد ما تقوله يا أفندم صحيح، ولكني لم أقصد ما فهمته سيادتك، أنا قصدت فقط عرض القضية، ولا أرغب أبدًا في توجيه طلب مباشر للناس لأن يتقدموا للإدلاء بأي معلومات يعرفونها، أريد فقط أن تكون القضية أمامهم لفترات طويلة، وأن تكون صورة القتيلة دائمًا في ذاكرتهم.

– فهمتُك الآن جيدًا، واقتنعتُ بفكرتك، وسأتصل حالًا بإدارة العلاقات العامة؛ لتبدأ تنفيذ الخطة فورًا.

– أشكرك بشدة يا أفندم.

– وفقك الله يا محمود.

أغلق محمود التليفون، وعلى وجهه ابتسامة رضا، فوجد أسامة ينظر له بإعجاب، ويقول:

– الحقيقة يا أفندم كل يوم يزداد إعجابي بك.

– أنت فقط مجامل يا أسامة.

لم يعقب أسامة، ولكنه مَدَّ يده، وناوله التقرير المفصل عن الضحية والذي طلبه منه من قبل، فشكره محمود، وقبل أن يغادر، طلب منه تليفون صابر سائق القتيلة، فاتصل أسامة بمعاونيه في القسم، وحصل منهم على الرقم، وأعطاه إياه، ثم حيَّاه وانصرف.

***

وقفت نادية في شرفة غرفة نومها التي تطل على الشارع، تنتظر زوجها على أحر من الجمر، وكان قد اتصل بها وأخبرها أنه ترك مديرية الأمن بعد انتهاء التحقيق معه، فأمرته بالعودة سريعًا؛ حتى تعرف ما حدث، وبمجرد وصوله الڤيلا، ذهب مباشرة إلى غرفة النوم وألقى جسده على الفراش، وبدا عليه الذعر والرعب، فسألته نادية:

– أخبرني ماذا حدث؟ لما تبدو مرعوبًا هكذا؟

ردَّ بصوت يرتجف:

– العميد محمود يشك في بشدة.

عادت زوجته وصرخت فيه:

– أخبرني ماذا حدث بالتفصيل؟

حكى عمر لزوجته عن مقابلة محمود الجافة، وأسلوبه الحاد معه في أثناء التحقيق، ولكنه لم يجرؤ أن يخبرها بسؤال محمود الأخير عما إذا كان أحب مديحة.

فنهرته زوجته على خوفه، وقالت:

– لا تكن جبانًا، كلها كانت أسئلة عادية كالتى وجهها لى، والأجوبة التي لقنتها لك، تتطابق مع أجوبتي، فلا داعي للرعب الذي أنت فيه.

ردَّ بصوت كالطفل:

– أحيانًا أرغب في أن أذهب لمحمود، وأعترف له بكل شيء.

وبحسم قاطع، وبعينين يتطاير الشرر منهما، قالت:

– سأقتلك لو قلت هذا الكلام مرة أخرى.

(٢٢)

فضَّل محمود أن يختلي بنفسه، فاتصل بزوجته، واطمأنَّ منها على أحوال المنزل، وأبلغها أنه سيبيت في مكتبه، بعد ذلك طلب من أحد الجنود أن يحضر له بعض الساندويتشات، تناولها، وبعدها طلب فنجانًا من القهوة، وأمر الجندي بغلق الباب وعدم الدخول له إلّا في الصباح.

وضع أمامه تقرير أسامة وبدأ يقرؤه وجاء فيه:

الاسم: مديحة عبد الحميد الشناوي.

السن: ٤٩ سنة.

الحالة الاجتماعية: مطلقة، ولها ابن مقيم بكندا، عمره ٣٠ سنة، متزوج، ومستقر في حياته، وله ٣ أبناء.

المهنة: ناشطة اجتماعية تهتم بالأعمال الخيرية.

الحالة المادية: شديدة الثراء.

ظروف الحادث: تم الإبلاغ عن الحادث يوم السبت الخامس من يوليو، في الساعة الحادية عشرة ليلًا، عن طريق بواب الڤيلا، والذي اكتشف الجثة، أثبتت المعاينة أن القتيلة ماتت فيما بين الساعة ٤-٦ عصرًا، مطعونة في الرقبة من الخلف، ولم يتم العثور على أداة الجريمة، والتي رجَّح الطبيب الشرعي أن تكون سكينًا أو خنجرًا، وُجدت الجثة ملقاة على وجهها، ولم يكن بها آثار اعتداء بدني أو جنسي، وكانت القتيلة ترتدي:

١- قرطًا من الألماس.

٢- الفستان الأزرق (فستان سهرة طويلًا).

٣- حذاء كحليًّا بكعبٍ عالٍ.

٤- خلخالًا ذهبيًّا في كاحلها الأيمن.

تميزت القتيلة بقوة الشخصية والجمال الفائق، تزوجت بمهندس لمدة ٢٠ سنة، أنجبت منه ابنها الوحيد، ثم انفصلت عنه، وعاشت بعد ذلك بدون زواج، وعلى الرغم من انتمائها لعائلة كبيرة فإن علاقتها كانت بفرد واحد فقط، هو ابن عمها ويدعى سالمًا، ويعمل محاسبًا في هيئة البريد، وبالنسبة للأصدقاء، لم يكن لها سوى صديقة واحدة مقربة هي السيدة نادية،

ومتزوجة برجل أعمال ذي سمعة جيدة، أمَّا بخصوص الخدم، فيقوم على خدمتها البواب عمران منذ أربع سنوات، ويقيم مع زوجته وولديه بغرفة ملحقة بالڤيلا، كما تأتي إليها شغالة تقوم بأعمال التنظيف والطهي، كل يوم من الساعة ٩ صباحًا حتى ٥ مساء عدا يوم الجمعة، وتعمل لديها منذ حوال سنتين، واستخدمت سائقًا خاص لمدة سنتين ويدعى صابرًا، ولكنه ترك العمل لديها منذ ثلاثة أشهر.

قرأ محمود التقرير بإمعان شديد، وبدا على وجهه بعض الامتعاض، ثم اتصل بأسامة وكانت الساعة قد أشرفت على منتصف الليل، وأثنى بشدة على أسلوبه ودقته في كتابة التقرير، فبادله أسامة الشكر، وعبّر له عن مدى سعادته؛ لأن الثناء جاء من أذكى ضابط في إدارة البحث الجنائي، ثم تبادلا التحية وأغلق محمود الخط.

أخرج محمود رسالة مديحة، وظل يقرؤها بتمعن، ثم فتح مفكرته ودوَّن فيها الملاحظات التالية:

١- وقوفه طويلًا أمام صورة مديحة.

٢- مديحة تضع سيارتها خارج الجراج على غير عادتها.

٣- مهند يرى أن عمران يستحق القتل.

٤- المحامي يقول إن والد مديحة هو من زوَّجها بزكي، ومنعها من الزواج برجل كانت تحبه، وهنا أضاف محمود وكتب "هل يكون العريس هو محبوب مديحة الذي حرمها أبوها إياه؟".

٥- المحامي لا ينسى عبارة مديحة "أنا ومهند عند زكي سواء".

٦- عمر يطيع أوامر زوجته كما لو كان طفلًا يطيع أمه.

٧- عمر أحب مديحة.

٨- قُتلت مديحة وهي ترتدي ملابس سهرة.

ظل محمود طويلًا يقرأ بعمق ما كتبه من ملاحظات، وأمسك بقلمه مرة أخرى، وكتب كثيرًا في الجزء الخاص بتحليل الملاحظات، ولم ينم إلّا بعد أن صلى الفجر، وقبل أن يخلد إلى النوم، ابتسم وهمس لنفسه

"أخيرًا، بدأت الكلمات تصطف بطريقة تجعلني أستطيع قراءة جملة مفيدة".

(٢٣)

استيقظ محمود في تمام الثامنة، وكان أول ما فعله قبل أن يقوم من فراشه، أن اتصل بصابر السائق، وطلب منه الحضور فورًا إلى مديرية الأمن، ثم قام واغتسل، وتناول إفطاره، وكان عبارة عن ساندويتشات الفول والطعمية المحببة إلى قلبه، وأعقب الإفطار بكوب من القهوة، واتصل بزوجته واطمأنَّ على أحوالها هي والأولاد وطمأنها على أحواله.

كانت عقارب الساعة المعلقة على الحائط أمامه تشير إلى التاسعة، عندما وجد باب المكتب يُفتح، ويدخل منه صابر.

بدا على صابر الخوف، ولكن بدرجة أقل كثيرًا مما بدا عليه أول مرة، فأراد محمود أن يزيل هذا الخوف، فتكلم معه بوجه بشوش، وأصرَّ أن يحضر له كوبًا من الشاي، وبالفعل هدأ صابر تمامًا، وبدأ محمود كلامه قائلًا:

– حقيقة الأمر أني استدعيتُك وأنا أعلم أنك مَن عَبَثَ بفرامل سيارة مديحة، بل أعلم مدى كراهيتك لمديحة، ولكن هناك بعض الأمور ما زالت

تخفى عليَّ، وقد تعمدتُ أن يكون الكلام بيني وبينك هنا في عدم وجود أي شخص كما ترى؛ لأني أعلم أن لديك بنتين في عمر الزهور، ووالدتهما تُوفيت قريبًا، وليس لهما أحد في الدنيا يرعاهما سواك كما فهمت منك المرة السابقة، ولهذا قررتُ أن أتعامل معك بروح القانون، ولكن بشرط أن تخبرني بالحقيقة ولا شيء سواها، أمَّا إن أخفيتَ عني أي شيء، فلتنسَ تمامًا روح القانون، وسأطبق عليك القانون.

ارتعدت يدا صابر، وبدأت الدموع تتساقط من عينيه، فقام محمود من خلف مكتبه، وربت على كتفيه في عطف بالغ، وناوله منديلًا؛ ليجفف دموعه، وقال:

– لِمَ تلك الدموع يا رجل؟ قلت لك: سأطبق معك روح القانون لو كلمتنى بروح الأصدقاء، فلا داعي للدموع؟

هدأ صابر، وقال بصوت منكسر:

– سأحكي لك يا أفندم كل شيء، ولكنك وعدتني أنك ستجعلني أرعى ابنتيَّ، ولن أتركهما وحيدتين.

– وأنا عند وعدي يا صابر.

بدأ صابر حكيه فقال:

– تعرفتُ إلى السيدة مديحة منذ عامين كما أخبرتُ سيادتك من قبل، وكنت أسعى للحصول على مساعدة لزوجتي من الجمعية الخيرية التي هي عضو فيها، وللأمانة، وجدتُها سيدة كريمة لأقصى درجة، ولم تجعلني أحتاج لأي شيء، فخدمتُها بكل تفانٍّ وحبٍّ.

منذ فترة ليست بالبعيدة وتحديدًا مع بداية العام الميلادي الجديد، لاحظت أنها أصبحت أكثر ضحكًا ومرحًا، كما أصبحت أكثر كرمًا وعطفًا، حتى أنني في إحدى المرات قلت لها:

"والله يا ست مديحة أنا منذ عملي لديك، وأنا أضرب بك المثل في الكرم والأخلاق، ولكن اسمحي لي أن أقول إنكِ في الشهر الأخير، أصبحتِ أفضل مما كنتِ عليه من قبل ١٠ مرات بل ١٠٠ مرة".

فضحكت بصوت عالٍ، وقالت:

"أنا الآن أعيش أجمل أيام حياتي، وأرغبُ أن أرى الناس سعداء مثلي يا صابر".

فدعوتُ لها، وأكدتُ لها أنها تستحق كل خير.

ولكن ما حدث بعد ذلك كان شيئًا لا يُصدق، وكان يوم عيد الأم، وجدتُها على حالة من العصبية لم أرَها عليها من قبل، فتصورت أن هناك أمرًا

عارضًا يجعلها بهذه العصبية، ولكنها استمرت على هذه الحالة، حتى تركتُ العمل لديها.

– ولكن لماذا تركتَ العمل؟ وما سِرُّ كراهيتك لها؟

رشف صابر رشفة من كوب الشاي، وقال:

– سأكمل لسعادتك، كانت السيدة مديحة بدأت تعطيني من أول شهر يناير ومع بداية حالة السعادة التي كانت تعيشها مبلغ ٢٠٠٠ جنيه كل شهر، وأبلغتني أنها مساعدة إضافية منها.

وقتها كان أحد الأطباء أخبرني، أن هناك علاجًا كيماويًّا جديدًا غالى الثمن، ولكنه سيساعد زوجتي، ويخفف من آلامها كثيرًا، ففرحت بمساعدة الست مديحة الإضافية فرحة لا توصف؛ لأني سأتمكن من شراء هذا العلاج لزوجتي.

وبالفعل بدأت زوجتي في العلاج الكيماوي الجديد، وكان يستهلك شهريًّا مبلغ المساعدة بالإضافة إلى جزء كبير من الراتب، ولم أعبأ بما أنفق، فكل شيءٍ يهون عندي من أجل زوجتي، وأخبرني الطبيب أن الدواء سيتم إعطاؤه على جرعات متفرقة لمدة ٦ شهور.

وبالفعل بدأت زوجتي في تلقي العلاج، وخفَّت آلامها بصورة ملحوظة، فشعرتُ أني أسعد شخصٍ على الأرض.

ولكن وبعد التغير الغريب الذي طرأ على الست مديحة من عصبية وانفعال على أتفه الأسباب، فوجئتُ في أول شهر أبريل أنها تعطيني الراتب دون المبلغ الإضافي، فلمَّا سألتها عن السبب، أبلغتني أني لن أتقاضى أي مبالغ إضافية مرة أخرى، فشرحت لها ظروف علاج زوجتي الجديدة، بل طلبتُ منها أن تعطيني المساعدة المالية فقط لمدة ٣ أشهر إضافية؛ حتى تنتهي الجرعات المقررة لزوجتي، ولكنها رفضت بشدة، بل إنها قامت بطردي بحجة أنها لم تعد تأتمنني على نفسها، فلم أستطع أن أكمل لزوجتي العلاج، وعاد لها الألم بصورة أفظع، وماتت في نهاية هذا الشهر.

التقط صابر أنفاسه المتلاحقة، وأردف:

– صدقني يا محمود بك لم أكره طول حياتي أي مخلوق، وكانت مديحة أول إنسان أكرهه بهذه الدرجة الهائلة، هل تتصور أني لم أتمنَّ موتها قط، ولكن تمنيت أن أراها تعيش وتتعذب كما تعذبت زوجتي وتعذبتُ أنا معها.

ظلت صورة مديحة تطاردني كالكابوس منذ أن توفيت زوجتي، وكنت أذهب في مرات كثيرة، أجلس أراقب الڤيلا؛ حتى أقابلها، وأُخبرها أن زوجتي ماتت متألمة بسببها، ولكني لم أقوَ على فعل ذلك.

وذات ليلة، ذهبت إلى الڤيلا، فوجدت سيارتها في الشارع، ولم تكن تلك عادتها، فتصورت أنها ستخرج بها ثانية، فانتظرت حتى تخرج؛ لأني كنت مصممًا ليلتها على أن أقابلها، ولكن مرَّ الوقت، وانتصف الليل، ولم تخرج.

فجأة، قفز إلى عقلي أمرٌ أُقسم بالله أني لم أرتب له يومًا.. فكرتُ في أن أعبث بالفرامل. بقيت في مكاني أفكر دقائق في هذا الأمر، فوجدتُ أن هذا ما أريده، فأنا لا أريدها أن تموت، ولكن بهذه الطريقة ستتعرض إلى حادث، من الممكن أن يجعلها تعيش وهي تتألم.

وكأن الظروف كلها كانت تتجمع لأنفذ هذا الأمر، فوجدتُ في جيب البنطلون المفاتيح الإضافية لسيارتها، والتي نسيتُ أن أسلمها لها عندما تركتُ العمل، ونسيتْ هي أيضًا أن تأخذها مني، وفي سرعة البرق، فتحت شنطة السيارة، وأخرجتُ بعض المفكات، وأنا لديَّ خبرة هائلة بالميكانيكا، فتمكنت في أقل من ثلاث دقائق من فكِّ خرطوم الفرامل، ووجدتني أجري دون أن ألتفتَ ورائي، وأراد الله أن يسترني فلم يرني أحد.

كنت قد رتبت أن أنتظر أسبوعًا ثم أتصل بعمران البواب؛ حتى أعرف ما حدث، ولكن فوجئت بعد يومين، أن قرأت في الجريدة نعيها، فارتعدت أوصالي، وتأكدت أني تسببتُ في موتها، وأصبحتُ غير قادر على التفكير، ولكن هداني عقلي لأن أذهب إلى العزاء؛ لعلني أعرف أي أخبار.

وللعجب، أنه بعد وصولي سرادق العزاء، وجدتني أريد أن أختفي عن كل الناس، بل شعرت كما لو كان الجميع يشير إليَّ ويقول: هذا هو القاتل، حتى أني سلمتُ على الأستاذ سالم، وعلى مهند، وأنا أكاد أجري؛ حتى لا يديرا معي أي حديث.

بقيتُ على هذه الحالة، حتى تقابلتُ مع سيادتك المرة السابقة، وكانت المرة الأولى التي أعرف فيها أن الست مديحة ماتت مطعونة بسكين، وليس بسبب السيارة، شعرتُ ساعتها أن روحي رُدت إلى جسدي، وأن الله أراد أن يسترها مع ابنتيَّ، فهو يعلم أني لم أفكر قط في قتل الست مديحة.

بدأت دموعه تتساقط مرة ثانية واختتم حكايته قائلًا:

- أقسم لسيادتك أني قلت الحقيقة كاملة.

كان محمود قد تأثر بحكاية صابر، فردَّ بصوت عطوف:

- وأنا أصدقك، ومن أجل ابنتيك وروح زوجتك، سأسمح لك بالانصراف، وسأنسى أني سمعتُ منك شيئًا، وستنسى أنت تمامًا قصة الفرامل، بل عليك أن تمسحها من ذاكرتك.

قام صابر، وحاول أن يقبل يد محمود، لكنه جذبها بسرعة، وتبادل معه القبلات قبل أن ينصرف.

(٢٤)

بمجرد أن غادر صابر المكتب، أخرج محمود مفكرته ودوَّن فيها:

١- مديحة في حالة سعادة مع بداية العام الميلادي.

٢- مديحة في حالة من العصبية بدأت يوم عيد الأم.

٣- مديحة تعاملت مع صابر بمنتهى العطف والكرم، وتحولت معه فجأة وطردته في خلال عشرة أيام.

بقي محمود شاردًا يفكر ولم يخرجه من شروده إلّا رنين تليفونه، فوجده أسامة والذي تكلم بنبرة متحمسة وقال:

- صباح الخير يا أفندم.

- صباح الخير يا أسامة، هل من جديد؟

- مفاجأة مذهلة يا أفندم، سأحضر لك حالًا.

وردَّ محمود بانتباه:

- أنا في انتظارك.

أشارت عقارب الساعة إلى الثانية عشرة ظهرًا، عندما دخل أسامة مكتب محمود، وكانت ملامح وجهه توحي بالنصر، وقال بصوت متهلل:

- أخيرًا وضعنا أيدينا على قاتل مديحة.

لمعت عينا محمود، وردَّ باندهاش:

- كيف؟ ومن هو؟

- وصلني اليوم ڤيديو على قرص كمبيوتر مدمج، ولَمَّا شاهدته، وجدتُ به مشاجرة عنيفة بين مديحة مع رجل، وكان التاريخ على شاشة الڤيديو، يشير إلى يوم الخامس من يوليو، وكانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف، فهل تعرف مَن كان الرجل؟

- مَن؟

- سالم، ابن عم القتيلة.

***

بعد أن أنهى أسامة كلامه، جلس على مقعد أمام مكتب محمود حيث كان يتكلم وهو واقف، ووضع محمود القرص المدمج في الكمبيوتر الموضوع على مكتبه، وبدأ يشاهد التسجيل.

كانت مدته ٣٠ ثانية فقط، ولا يوجد به صوت، يظهر سالم فيه والغضب والانفعال يبدوان عليه، ويلوح بيديه باستمرار نحو مديحة، التي كانت تقف في مواجهته، ويبدو على وجهها الغضب، ومرتدية نفس الملابس التي وُجدت عليها وقت قتلها.

أعاد محمود مشاهدة الڤيديو أكثر من عشر مرات، ثم ظل شاردًا ولم يعلق، وبعد فترة صمت تكلم فقال:

– وهل استدعيتَ سالم للتحقيق معه بشأن هذا الڤيديو؟

– بالفعل يا أفندم، حصلت من النيابة على أمر بالقبض عليه، وزملائي الآن في طريقهم إلى هنا بصحبته؛ للتحقيق معه أمام سعادتك.

– وكيف وصل لك هذا التسجيل؟

– أحضره لي أحد الجنود صباح اليوم، ولَمَّا سألته كيف وصل إليه، أخبرني أن امرأة كانت تقود سيارة، أعطته له في أثناء وجوده خارج القسم.

– هل طلبت منه أن يسلمه لك شخصيًّا؟

– لا، بل طلبت أن يعطيه أي ضابط داخل القسم، بعد أن تأكدت أنه جندي بالقسم، ولأنه يعمل معي، فجاء وأعطاني إياه.

– ألم يحصل منها على أي معلومات عن شخصيتها؟

– لا، فقد أعطته إياه، وانطلقت مسرعة بالسيارة، فلم يتمكن من سؤالها عن أى شيء.

في هذه الأثناء، دخل إلى المكتب أمين شرطة مصطحبًا سالم، وكانت القيود الحديدية في يده، فأمر محمود بفكِّها، وسمح له بالجلوس، وكان سالم في حالة من الذعر تكاد تتسبب له في أزمة قلبية، فمنذ أن قبضت عليه الشرطة من داخل مقر عمله، وهو لا يعرف سوى أن هناك مصيبة في انتظاره.

بدأ محمود كلامه قائلًا:

– أرجو منك الهدوء قليلًا؛ لأنك الآن في تحقيق رسمي، أنت متهم فيه بقتل ابنة عمك مديحة الشناوي، فما أقوالك فيمَ هو منسوب إليك؟

صرخ سالم وقال:

– أنا بريء، أُقسم بالله لم أقتلها.

وبكل هدوء، أدار محمود شاشة الكمبيوتر حتى أصبح سالم يراها، وتركه يشاهد الڤيديو، وبعد انتهائه، سأله:

– ما أقوالك بشأن هذا الڤيديو، هل أنت من تظهر فيه؟

ردَّ سالم بانكسار:

– نعم.

– هذا الڤيديو تم تسجيله يوم قتل مديحة، بل أيضًا في التوقيت الذي رجحه الطبيب الشرعي لوفاتها، وأنت تظهر فيه وأنت تتشاجر معها بشدة، فمن المرجح أنك قتلتها في نهاية المشاجرة، ما أقوالك؟

– لم يحدث، نعم التوقيت الظاهر في التسجيل صحيح، ولكني لم أكن أتشاجر معها، ولكن كنت منفعلًا، وبمجرد أن انتهت ثورتي، تركتها وغادرت الڤيلا.

– ولكنك قلتَ من قبل، أن آخر مرة رأيتها فيها، كانت قبل الوفاة بأسبوع، ولم تذكر أنك كنت معها وقت الوفاة، فما السبب في ذلك؟

– خفتُ ساعتها أن تتهموني بقتلها إن قلتُ الحقيقة.

– وما الحقيقة؟

– الحقيقة أني كنت هناك بالفعل، ولكن لم أقتلها.

– إذًا أخبرنا عن سبب وجودك، وسبب المشاجرة بينكما، أو سبب انفعالك كما تحب أن تصفه، ولكن قبل أن تجيب، عليَّ أن أذكرك، أن موقفك حرج وصعب، فالتسجيل الذي رأيته بنفسك يكفي لإدانتك، فليس أمامك إلّا أن تقول الحقيقة؛ لأن أي أكاذيب أو إخفاء معلومات كما فعلت من قبل، سيزيد موقفك سوءًا.

بدا على وجه سالم رعب قاتل مما سمعه، فقال:

– سأحكي لسيادتك ما حدث بالتفصيل، وأقسم أني لن أقول سوى الحقيقة.

– فلتبدأ.

– بدأت حكايتي مع مديحة منذ ما يزيد عن ثلاثين عام، كنت وقتها طالبا في البكالوريوس بكلية التجارة، عندما قابلتُها لأول مرة، فأنا لم أذهب إلى القاهرة، وهي لم تأتِ إلى قريتنا قط؛ لأن والديها كانا يخشيان عليها من الناموس والحشرات، ولكن بعد أن كبرت وأصبحت في المرحلة الثانوية بدأت تزور قريتنا، وتسعد بالتنزه في أرض والديها والتي كنا نرعاها لهما.

لا يستطيع شخص يتعامل مع مديحة إلّا أن يحبها، وهذا ما حدث معي، وكانت الحب الأول في حياتي، وأصبحتُ مشغولًا بها ليل نهار، وتخيلتُ من معاملتها الرقيقة معي، أنها تبادلني هي الأخرى الحب، وبدأت أفكر في الارتباط بها، وأصبحت أنتظر يوم تخرجي بفارغ الصبر؛ حتى أذهب لأبي وأحكي له ليخطبها لي.

وكما كانت السبب في أن أعرف الحب لأول مرة، كانت السبب أيضًا في أول صدمة أتلقاها في حياتي وأقساها عندما علمت بنبأ زواجها من زكي، وكنت وقتها أنتظر ظهور نتيجة البكالوريوس، أي كنت على بعد أمتار قليلة

لأصارح أبي بمشاعري، وتجرعتُ الصدمة دون أن يعرف مخلوق ممن حولي شيئًا، حتى مديحة لم أصارحها يومًا بمشاعري نحوها.

أصبحت أراها بعد ذلك في مناسبات قليلة لا تزيد عن مرة كل عام، ولكن كانت كالغذاء الروحي الذي يمدني بالحياة، فقد تملَّك حبُّها مني، ولم أستطع أن أفارقه، أو أفارق خيالها، ولم تعد أي امرأة في الكون تلفت نظري، فعشت في محراب حبها ناسكًا مخلصًا، ولم أتزوج، بل اخترتُ أن أعيش في الخيال مع حلم، على أن أعيش في الواقع مع كابوس.

وفجأة علمتُ بخبر انفصالها عن زوجها زكي، بل إنها أصبحت وحيدة بعد بقاء ابنها في كندا، ووجدتها تتصل بي؛ لأساعدها في تسيير أمور حياتها، ومهما أصف لك سعادتي فلن أجد كلمات تصفها بصدق، يكفي أن أقول لك إني عُدتُ للحياة مرة أخرى.

تملكني يقين أن مديحة ستكون زوجتي في يوم ما، لأن القدر يرتب لنا الأمور لهذا الطريق، فأنا بقيت دون زواج، وهي انفصلت عن زوجها، وابنها هاجر للخارج، وها هي تتصل بي لأصبح أنا العون الوحيد لها في هذه الدنيا.

وبالفعل أصبحتُ على تواصل دائم معها، وكنت كثيرًا ما أسأل نفسي: إن كانت تبادلني الحب أم لا؟ فكان عقلي الذي أصبح راشدًا يقول: إنها

تُحبني كأخ لها وليس أكثر، أمَّا قلبي الذي بقي على مراهقته ولم يكبر، فظل يقول إنها تُبادلني الحب.

عشتُ بسبب هذا التناقض الرهيب بين عقلي وقلبي، في صراع مستمر لمدة ١٠ سنوات، هي فترة علاقتي بها منذ طلاقها، وكان الصراع يتمثل في رغبتي المستمرة في مفاتحتها في أمر زواجي بها، وعلى الجانب الآخر شيء يمنعني.

توقف سالم لحظات؛ لأنه بدأ يسمع صوت دقات قلبه، وطلب كوبًا من الماء، وبعد أن شربه، شعر أنه هدأ قليلًا، فواصل حكيه قائلًا:

– وأقسم لسيادتك، أني كنت وبصورة يومية أتعرض لهذا الصراع، فقبل أن أنام ليلًا، أقرر أن أفاتحها في شأن الزواج، ولكن في الصباح، أجدني لا أجرؤ، فأبحث عن أي عذرٍ لنفسي وأؤجل الأمر، وداومتُ على هذا الحال كل ليلة على مدى ١٠ سنوات، حتى كانت ليلة الجريمة.

وجدتها تتصل بي نحو الساعة العاشرة ليلًا، وطلبت مني أن أذهب لها في القيلا في الساعة الرابعة عصرًا في اليوم التالي، أي يوم الجريمة، ثم طلبت مني طلبًا تعجبت له بشدة.

– ما هو؟

– طلبت مني بصوت ضاحك وسعيد أن أرتدي بدلة رسمية.

– وهل سألتها عن سبب ذلك؟

– بالفعل سألتها.

– وبماذا أجابت؟

– ضحكت بصوت عالٍ وقالت "سوف تعرف غدًا"، وأصرت ألّا تخبرني، وأمضيتُ الليل أفكر ما السبب فيما طلبته، وما سرُّ الفرحة التي تبدو على صوتها، وللحقيقة فشلتُ في أن أُخمِّن سببًا، ولكنني اكتفيتُ بالسعادة التي عشتُها بسبب ضحكها ونعومة حديثها معي تلك الليلة.

بالفعل ذهبتُ لها مرتديًا بدلة رسمية، ووصلت تقريبًا الساعة ٤:١٥ عصرا، فوجدتها ترتدي ملابس سهرة، وتبدو في كامل أناقتها، وأيضًا كانت تبدو غاية في الحسن والجمال، وكأن العمر عاد بها إلى الوراء ثلاثين عامًا.

لكني تعجبت؛ لأنها فتحت لي باب الڤيلا الداخلي بنفسها، بل أيضًا كان باب الڤيلا الخارجي مفتوحًا، ولم يكن عمران موجودًا، ولمَّا سألتها عن سر غياب الشغالة والبواب، أجابت: إنها هي من أعطتهما أمرًا بالانصراف.

وقبل أن أسألها عن سبب ذلك، وجدتني دون أن أدري أمتدح جمالها وأناقتها وأسألها عن السر في ذلك، وإذا بها تضحك وتقول:

"عقد قراني سيتم بعد قليل، وأنت هنا لتشهد عليه".

مهما أصف مشاعري في تلك اللحظة فلن يشعر بها مخلوق، يكفي أن أقول إني بسبب مديحة عشتُ حياة مشوشة، اختلط فيها الواقع بالخيال، لدرجة أني في كثير من الأوقات، لم أكن أستطيع التمييز بينهما.

وجدتني دون أن أشعر أصرخ فيها قائلًا:

" كيف تتزوجين برجل دون أن تأخذي رأيي؟ بل كيف لكِ أن تفكري في الزواج بغيري؟".

عندما نطقت بهذه العبارة إذا بها تردّ بما لا يخطر على بالي قط، وجدتها تضحك بصوت عالٍ يرجُّ أرجاء المكان، وتتكلم بسخرية لا مثيل لها، وتقول:

"أتزوجُك أنت؟ هل جُننت لتفكر في هذا؟"

لحظتها رأيتُ وجهها يتحول إلى شكل غريب، رأيته كما يحدث في أفلام الرعب، فوجدته تحول إلى وجه شيطان، يخرج من عينيه ثعابين كبيرة تحاول أن تهجم عليَّ، فأمسكتها بقوة من ذراعيها وحاولت أن أدفعها بعيدًا عنى؛ حتى لا تلدغني الثعابين، ودفعتُها بكل قوة، فسقطت على كرسي كانت تقف أمامه، وخرجت مهرولًا، وأنا أتخيلها وحًشا سيقوم مرة أخرى ليلاحقني ويفتك بي.

وكأن سالم قد أنهى مارثون لتوه، فجلس مطأطئًا رأسه، وأنفاسه متلاحقة، والعرق يتصبب من جبينه، ولفَّ الصمت المكان حتى قطعه محمود وقال:

– هل جاءك شعور في أي وقت أنك قتلتها؟

كان سالم قد هدأ قليلًا، وقال:

– نعم.

– متى؟

– عندما أبلغني عمران أنها قُتلت، خفتُ ساعتها أن تكون دفعتي لها تسببت في وفاتها، ولكن بعد أن حضرت إلى الڤيلا وعرفت سبب وفاتها، تأكدت من أني لم أقتلها.

– هل قالت لك أي شيء عن الرجل الذي كانت بصدد الزواج به؟

– لم أُعطِها فرصة لذلك.

– هل لاحظتَ أي تغيير على سلوكها في الفترة السابقة لقتلها؟

– بعد وفاتها، بدأتُ أستعيد تصرفاتها، فتذكرت بالفعل أنها بدأت تتغير منذ نحو ٦ شهور، أو دعني أُقُلْ منذ بداية العام الميلادي الجديد، لأني أتذكر جيدًا وقت أن كنتُ أبادلها التهنئة بحلول العام الجديد، ردّت في سعادة لم أسمعها في صوتها من قبل، وأخبرتني أنها تشعر أن هذا العام سيكون أجمل عام في حياتها، ومن بعدها صارت أكثر ضحكًا ومرحًا.

– هل بقيت على هذه الحالة حتى وفاتها؟

– تقريبًا، باستثناء ٣–٤ أيام، انتابتها حالة من العصبية، لم أرها عليها من قبل.

– ومتى كان ذلك؟

– كانت البداية يوم عيد الأم.

– ولماذا تتذكر التاريخ بهذه الدقة؟

– لأني كنت أتصل بها صباحًا؛ لأهنئها بهذا اليوم، فوجدتها في حالة عصبية شديدة لم أعهدها فيها من قبل.

– هل حاولتَ أن تعرف السبب؟

– بالطبع، ولكن مديحة كانت تخبرك فقط بما تريد أن تخبرك به، وهي لم تُردني أن أعرف.

– وهل عادت إلى حالة السعادة التي كانت عليها بعد انتهاء فترة العصبية والتي استمرت ٣–٤ أيام كما ذكرت؟

– بعد انتهاء عصبيتها، عادت إلى حالتها الطبيعية التي عرفتها بها طول عمري، ولكن منذ أكثر من شهر، عادت لها تلك السعادة الكبيرة مرة أخرى.

- هل تعلم سِرَّ طردها لصابر السائق؟

وعلى الفور ردَّ سالم:

- بالطبع، لقد تشاءمت منه.

اندهش محمود وقال:

- ماذا تقصد؟

- عندما سألتها عن سبب طردها له قالت بتلقائية:

"هذا الرجل حسدني وأصبحتُ أخاف من عينيه".

- وكيف حسدها؟

- سألتها ولم تُجِبْ.

- هل كانت مشغولة كثيرًا بالحسد؟

- نعم، إلى درجة كبيرة، يكفي أنها طردت هذا الرجل، وكان غاية في الأمانة والأخلاق، بسبب اعتقادها أنه حسدها.

- تم تصوير الڤيديو الخاص بك من داخل الڤيلا، وقد أثبتت المعاينة عدم وجود كاميرات تصوير داخل أو خارج الڤيلا، فهل تظن أن القتيلة كانت لديها كاميرا في مكان سريٍّ بالڤيلا؟

– لا يمكن، فلطالما كررت عليها ضرورة تركيب كاميرات مراقبة داخل الڤيلا وخارجها، ولكنها كانت دائمة الرفض.

ثم سكت قليلًا وقال:

– ولكن حدث ذات يوم أمر غريب.

– ما هو؟

– في إحدى المرات التي كنت أنصحها بتركيب الكاميرات، وافقت وقالت:

"ولكن ضعها على الباب الخارجي فقط؛ لأني لا أريد كاميرات داخل الڤيلا".

وبالفعل أحضرت متخصصًا في هذا الشأن، وأجرى المعاينة، وقمت بنفسي بشراء الكاميرات، وبمجرد أن أخبرتُها أنها ستكون مثبتة في خلال يومين، وجدتها ترفض وتقول إنها غيَّرت رأيها، ولمَّا سألتها عن السبب وخاصة أن موافقتها لي لم يمضِ عليها أكثر من أسبوع، لم تعطني جوابًا مفيدًا، فضحكت وقلت إني سأثبت الكاميرات بالقوة؛ لأن هذا في مصلحتها، ولن آخذ ثمنها، فإذا بها تثور بشدة، فهدَّأتُها ونفذتُ لها ما أرادت ولم أركب الكاميرات.

فكر محمود كثيرًا، قبل أن يسأل:

- ومتى كان هذا؟

- منذ نحو شهرين تقريبًا.

سكت محمود لبرهة، ثم تكلم بصوتٍ به مسحة من أسًى:

- للأسف يا أستاذ سالم، مضطر لتحويلك للنيابة بتهمة قتل ابنة عمك مديحة الشناوي.

فصرخ سالم قائلًا:

- أقسم لك أني قلت الحقيقة كاملة، وأنا لم أقتلها.

نظر له محمود بعطف، وقال:

- أتمنى أن تثبت تحقيقات النيابة ذلك.

***

وضع أسامة كوب الشاي أمامه بعد أن ارتشف منه رشفة، وقال مبتسمًا:

- هل نستطيع أن نقول إننا انتهينا من القضية الآن يا أفندم؟

كان وجه محمود متجهمًا، فقال:

- لا أظنُّ يا أسامة.

وبدهشة مفرطة ردَّ أسامة:

– هل صدقت ما حكاه سالم؟ لقد كذب علينا مرة فلماذا لا يكذب مرة ثانية؟

– شيء ما بداخلي يقول إنه بريء.

– لكن الدافع موجود لديه بقوة، والتسجيل يثبت مشاجرته مع القتيلة وقت وقوع الجريمة.

– ولكن التسجيل جاء مبتورًا، أظهر فقط أن هناك مشاجرة بين سالم والقتيلة، ولكن لم يظهر عملية القتل، ثم السؤال الأهم؛ مَن قام بتصوير هذا الڤيديو؟

– حتى لو كان مهمًّا أن نعرف من صوَّر هذا الڤيديو، ولكن الأهم أننا وصلنا إلى القاتل.

– كلامك يكون منطقيًّا لو كان الڤيديو أثبت أن القاتل هو سالم، ولكن الڤيديو يشير فقط بأصابع الاتهام له، ولا يثبت أنه القاتل.

– إذًا لماذا أمرت سيادتك بتحويله إلى النيابة بتهمة القتل؟

– أنا عندما أدافع أمامك عن سالم فأنا أحدثك ببواطن الأمور، أمَّا ظواهر الأمور، فنحن لدينا تسجيل يشير بالاتهام لسالم، بالإضافة أن لديه

دافع للقتل، كما أنه لم يأتِ بنفسه ليعترف بما حدث، ولا تنسَ أنه كذب علينا من قبل فلا أستطيع تصديقه بصورة مطلقة؛ ولأجل كل هذا، كان لا بد من تحويله للنيابة متهمًا بالقتل؛ لعل تحقيقات النيابة تظهر لنا المزيد من الحقيقة.

– وما الخطوة التالية يا أفندم؟

فكر محمود قليلًا، وقال:

– لا بد أن نجد هذا العريس الشبح، أنا على يقين أنه الوحيد الذي يعرف مَن قتل مديحة.

***

تم التحقيق مع سالم في سرايا النيابة، ولم تختلف أقواله عما قاله في تحقيق المباحث، وأمر وكيل النيابة بحبسه ٤ أيام على ذمة التحقيق، وبلغت هذه الأنباء محمود، فأسند رأسه على مسند المقعد، وأغمض عينيه، وأخذ يسبح في التفكير، وفجأة انتبه، وقال بصوت يكاد يكون مسموعًا:

"الحمد لله، لقد أخطأ القاتل هذه المرة في تقديراته، لقد نجا سالم من الموت بأعجوبة".

(٢٥)

مرَّ يومان على العميد محمود في خلوته داخل غرفة على النيل في أحد فنادق القاهرة، وكانت تلك عادته في كل القضايا التي حقق فيها، كان في وقت معين في أثناء القضية يختلي بنفسه ويتفرغ تمامًا لعملية التحليل التي يقوم بها للملاحظات والمعلومات التي جمعها في أثناء التحقيقات.

كان الجميع على علم بهذه العادة، حتى أنه ذهب للواء الشوربجي قبل أن يبدأ خلوته؛ ليستأذنه، ويبلغه بأنه سيعود بعد يومين، فتمنى له التوفيق، وأخبره أن إدارة الإعلام بالوزارة تقوم بجهد عظيم في تنفيذ خطته، وأن القضية أصبحت ليل نهار في معظم القنوات الفضائية، وكانت هذه مفاجأة سعيدة لمحمود؛ لأنه لم يكن يشاهد التليفزيون في هذه الفترة على الإطلاق.

أمَّا أسامة فكان يتصل به بصفة يومية ليطلعه على آخر أخبار القضية، وبالنسبة لزوجته كان يُحدِّثها مرة صباحًا ومرة مساء؛ ليطمئن فيها على أسرته.

كانت ليلته الأخيرة في الفندق، وقبل أن ينام، وجد نفسه يبتسم لأن شعاع النور الذي ظل يبحث عنه منذ أن بدأ القضية قد لاح له، وأنه في تلك المرة شعاع حقيقي وليس وهمًا، وأصبحت نهاية النفق المظلم الذي يسير فيه على وشك الانتهاء، ولكن سريعًا ما اختفت ابتسامته، بعد أن تذكر الصوت الذي يرن في أذنه منذ يومين مرددا "الفستان الأزرق"، وهو لا يفهم شيئا.

***

دخل محمود مكتبه وكان كله نشاط بعد فترة الاستجمام التي قضاها، وقبل أن يجلس على كرسيه وجد أسامة يتصل به ويقول بصوت جاد ممزوج بالارتباك:

– لقد تلقينا الآن بلاغًا من مهند، يفيد بسرقة عقدٍ خاصٍّ بوالدته يزيد ثمنه عن ١٠ ملايين جنيه.

ارتفع حاجبا محمود، ولمعت عيناه، وقال:

– كم؟ وكيف حدث هذا؟

ولكن دون أن ينتظر رد أسامة قال:

سأمرُّ عليك في القسم الآن؛ لنذهب لمهند معًا.

***

وصل محمود بصحبة أسامة إلى القيلا، وكان مهند بانتظارهما، وكان بصحبته الأستاذ خالد المحامي، والذي فوجئ محمود بوجوده، جلس الأربعة في أحد صالونات البهو، وبدأ محمود الكلام قائلًا:

– ما حكاية هذا العقد يا أستاذ مهند؟

بدا على مهند التوتر والانفعال بصورة لم يبدُ عليها من قبل، وبدأ يقصَّ حكاية العقد النادر والتي حفظته أمه داخل خزينة في البنك، ووصيتها بخصوص التبرع به، وعدم ممانعته في تنفيذ الوصية، وعندما وصل إلى هذه النقطة، أيَّده خالد في كل ما قاله، ثم عاد وأكمل:

– واليوم بعد الانتهاء من إجراءات إعلام الوراثة، ذهبت بصحبة الأستاذ خالد إلى البنك، لاستخراج العقد من الخزينة، فوجدنا الخزينة خالية ولا يوجد بها العقد، وإذا بمدير البنك يخبرنا أن أمي أخذت العقد يوم الأربعاء الثاني من يوليو، أي قبل وفاتها بثلاثة أيام، ولكني لم أعثر له على أثر داخل القيلا، فمنذ قدومي من البنك لم أترك أنا والأستاذ خالد مكانًا إلّا وبحثنا فيه، فأبلغت الرائد أسامة بالأمر.

هزَّ محمود رأسه، وقال:

– معنى هذا أن القضية ستأخذ شكلًا جديدًا تمامًا.

– عفوًا، لا أفهم ماذا تقصد؟

– سالم ابن عم والدتك هو المتهم الرئيسي الآن في قتلها، ولكن دافع القتل لديه لم يكن السرقة، أمَّا بعد اكتشاف سرقة العقد، فسيكون دافع القتل هو السرقة.

سأله خالد:

– ولكن أليس من الممكن أن يكون سالم قتلها، وبعد ذلك قام بالسرقة؟

– لو صدقت قصة سالم، وأردت اتهامه بالقتل معتمدًا على تسجيل الڤيديو، فسيكون مبررك الوحيد أنه أصبح في حالة نفسية لم يستطع فيها التحكم في نفسه، وقتل دون وعي منه، أو حتى قتل بوعي لينتقم، وفي هذه الحالة لن يكون في ذهنه أي تفكير للسرقة.

أمَّا لو اتجهتَ بتفكيرك أنه يكذب، وأنه خطط لقتلها من أجل السرقة، فستجد أن التسجيل أصبح دليلًا على براءته؛ لأنه لم يكن هناك سبب ليتشاجر معها.

والآن أستطيع أن أقول، إنَّ الشخص الذي أرسل الڤيديو إلى الشرطة في محاولة لإلصاق التهمة بسالم، إمَّا أن يكون هو السارق وسالم القاتل، أو يكون هو نفسه من قتل وسرق، وهذا ما سوف تكشف عنه الأيام القادمة.

وبتلقائية شديدة، ردَّ خالد:

- حقًّا أنت عبقري يا محمود بك.

شكره محمود بتواضع على مديحه، وسأل مهند:

- هل تعلم ثمن الجواهر الموجودة في الخزينة؟

- لا.

- ولا حتى بصورة تقريبية؟

- هي عبارة عن مجموعة من المشغولات الذهبية القديمة معظمها ورثتها أمي عن جدتي وكانت تحتفظ بها في صندوق مستقلٍّ؛ لأنها لم تكن ترتديها بسبب قدم موديلاتها، إلى جانب مجموعة من الجواهر الحديثة الخاصة بها، والمتمثلة في عدة خواتم وأقراط من الماس، بالإضافة إلى طقم من الألماس مُطعم بالياقوت الأحمر عبارة عن عقد وسوار وقرط وخاتم، وأظنُّ أن قيمة هذه الجواهر تتراوح بين مليونين إلى مليونين ونصف جنيه.

فكر محمود قليلًا، وقال:

- هل تتعامل أسرتك مع محل جواهر محدد؟

- نعم، فهناك محل تتعامل معه الأسرة منذ زمن بعيد ولا نتعامل مع سواه.

ردَّ محمود سريعًا:

– إذن أرجو أن ترسل سريعًا له بتلك الجواهر وتدعه يثمنها لك؟

– اليوم هو الأحد والمحل مغلق، غدًا سأفعل ذلك.

***

في الطريق إلى القسم، طلب محمود من أسامة أن يرسل في إحضار نادية فورًا، ويستعلم من الجندي الذي أعطاه التسجيل إن كانت هي المرأة التي أعطته إياه أم لا، وبمجرد وصولهما إلى القسم، استقل محمود سيارته وتوجه إلى مكتبه بالمديرية.

في المساء اتصل أسامة بمحمود، وأبلغه أنه أحضر نادية ولم يتعرف إليها الجندي، وصرفها دون أن تعرف سبب حضورها عملًا بنصيحته، فردَّ محمود:

– عظيم، توقعت هذا تمامًا، فلا يمكن أن تخاطر وتذهب بنفسها لتعطي التسجيل للجندي، ولكن عليك أن تضعها تحت المراقبة ٢٤ ساعة.

– وماذا عن زوجها؟

– لا أهمية له الآن.

***

بعد غياب نحو ثلاثة أيام، عاد محمود إلى منزله في الحادية عشرة ليلًا، فاستقبلته زوجته ناهد ومعها مازن وهند أولاده بحرارة شديدة، وجلسوا يتناولون العشاء معًا، ويحكي كل واحد منهم عن أخباره، وكانت جلسة عائلية دافئة، بعدها أحضرت زوجته القهوة ووضعتها له في غرفة مكتبه، وبدأ في العمل، فأخرج مفكرته، وكتب فيها:

١- خالد المحامي يذهب مع مهند لاستخراج عقد والدته من خزينة البنك.

٢- اكتشاف أن مديحة أخذت العقد قبل وفاتها، واختفاء العقد والذي يزيد ثمنه عن ١٠ ملايين جنيه.

كتب محمود تحليلًا لبعض الملاحظات، بعدها ذهب لينام، فوجد زوجته لا تزال مستيقظة، فسألته:

- جئت تنام مبكرًا اليوم، ألم يكن لديك عملًا كثيرًا؟

فردَّ محمود بتلقائية:

- هناك رسالة كنت أقرؤها كل يوم لأكثر من ساعة؛ حتى أفهم منها شيئًا، ولكن اليوم لم أفعل؛ لهذا جئت مبكرًا، وفجأة بعد أن أكمل عبارته، هبَّ جالسًا في الفراش، وقال بصوت عالٍ:

– الآن فهمت.. الآن عرفت.. لماذا أرسلت مديحة الرسالة.

نظرت إليه زوجته وهي خائفة عليه من انفعاله، وقالت:

– اهدأ يا محمود.

فقبَّلها محمود على جبينها، وقال:

– لقد ساعدتِني يا حبيبتي في حلِّ لغز الرسالة، تلك الرسالة الملعونة التي أرهقتني منذ بداية القضية.

لم تُعقِّب ناهد، ولكنها بقيت مشدوهة لا تفهم شيئًا، ولم تشأ أن تزعجه بأي أسئلة بعد أن وجدته يستلقي على الفراش مرة أخرى، ويسلم نفسه للنوم.

(٢٦)

استيقظ محمود مبكرًا، وتناول إفطاره سريعًا، ثم غادر المنزل، ولم تكن الساعة قد بلغت الثامنة صباحًا إلَّا وكان يجلس في مكتب مأمور السجن، وسالم يجلس أمامه بعد أن أحضروه له من محبسه، وبدأ كلامه قائلًا:

- كيف أحوالك يا سالم؟

ردَّ سالم بنبرة انكسار:

- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، سكت للحظة ثم أردف:

- لكن الشعور بالظلم شعور قاتل، ولا أظنك جربته من قبل.

- لا تنسَ يا سالم أنك أنت من ظلمت نفسك، مرة بإخفائك المعلومات والحقائق، ومرة بكذبك علينا في التحقيقات الأولية.

- لعنة الله على الخوف، فهو الذي دفعني للكذب وليس شيئًا آخر.

– وأنا هنا اليوم لشعوري أنك بريء، وأرغب في مساعدتك، ولكن الأمور غاية في الصعوبة، وعليك أنت أن تساعدني للوصول إلى براءتك.

– وهل تتصور أني أمانع أن أفعل أي شيء؛ لأثبت براءتي.

– إذن فلتذكر لي الحقيقة كاملة في أي سؤال سأسأله لك.

ردَّ سالم وصوته به مسحة من الانفعال:

– أقسم لك أني قلت الحقيقة كاملة، ولم أخفِ عنك شيئًا.

فكر محمود قليلًا، وقال:

– عندما رأيت القتيلة يوم الجريمة، ذكرت أنها كانت تبدو غاية في الجمال والأناقة، هل هذا صحيح؟

– نعم صحيح.

– هل تذكر إن كانت ترتدي يومها عقدًا أم لا؟

وعلى الفور، ودون أي تردد، قال سالم:

– نعم، كانت ترتدي عقدًا غاية في الفخامة.

اندهش محمود من السرعة التي ردَّ بها سالم، وقال:

– وما سِرَّ تذكرك للعقد بهذه السرعة؟

– كانت مديحة ترتدي فستانًا عاري الصدر، وكان العقد يتلألأ على صدرها بصورة تخطف الأبصار، حتى أنني علقت على جماله وفخامته مباشرة بعد أن علقت على جمالها، فأجابتني أنها أرادت أن ترتدي في هذه المناسبة شيئًا من رائحة أمها، قبل أن تخبرني ما هي المناسبة.

– ألم تخبرك عن زيارة ابنها لها منذ شهرين تقريبًا؟

اندهش سالم وردَّ:

– على الإطلاق.

– ألم تتحدث معك عن ابنها في الفترة الأخيرة بأي صورة؟

فكر سالم وقال:

– حدث ذلك ذات مرة ولكن بطريقة غير مباشرة، وكانت قبل وفاتها بشهر تقريبًا، وكنت عندها في الڤيلا، ووجدتها تقول لي في معرض حديثي معها، إنها تحسدني لأني لم أنجب، وبررت مقولتها بأن الأبناء لا يأتي من ورائهم إلّا المشكلات ولا يمكن أن تستفيد منهم، ثم ضربت بابنها مثلًا لذلك، فهو تركها تعيش وحيدة منذ أكثر من ١٠ سنوات وأقام في بلاد المهجر، والآن لا تحصد من ورائه إلا المشكلات، ولمَّا حاولت أن أطمئن منها عن أحواله، وعن طبيعة المشكلات التي تتحدث عنها، تهربت من الإجابة وغيرت دفة الحديث.

– وهل تكلَّمت معك يومًا عن طليقها؟

– فقط مرة واحدة، وكان ذلك بعد انفصالها عنه مباشرة، أي من ١٠ سنوات تقريبًا، وكانت المرة الأولى التي ألتقيها، ولمَّا حاولت أن أستفسر منها عن سبب الطلاق، فوجدتها تضحك وتقول إنها ستعيش من الآن أسعد أيامها؛ فقد تخلصت من كابوس عاشت معه ٢٠ سنة.

فسألتها هل كان يسيء معاملتها، ومرة أخرى ضحكت ونفت هذا تمامًا، لكنها قالت عنه عبارة لم أنسها طوال هذه السنين، فقد قالت بالحرف:

"لقد كنت أشعر بالغثيان كلما رأيته، فهو رجل يبيع نفسه من أجل المال".

***

ودَّع محمود سالمًا بعد أن وعده أنه سيبذل قصارى جهده لإظهار الحقيقة، وتوجه مباشرة إلى قسم الشرطة، التقى أسامة في مكتبه، وحكى له عن زيارته لسالم وما دار بينهما، ثم عرف منه أن جميع المحاولات المبذولة للحصول على أي معلومات بشأن عريس مديحة باءت جميعها بالفشل، وأنه بالفعل لا ينطبق عليه إلَّا اسم "الشبح"، أمَّا بخصوص نادية فلا تزال تحت المراقبة الدقيقة ولم ترد بشأنها أي معلومات مهمة.

كانت الساعة تقترب من الثانية ظهرًا، وكان محمود لا يزال يجلس مع أسامة في مكتبه يتباحثان في أمور القضية، فوجد تليفونه يرنُّ، وما إن التقطه وردَّ، إذا بصوت مهند يأتي صارخًا ويقول:

– الحقني يا أفندم، لقد تمت سرقتي للمرة الثانية.

ردَّ محمود في ذهول:

– ماذا تقول؟ ما الذي حدث؟

– جميع الجواهر الموجودة في خزينة الڤيلا مقلدة وليست أصلية، ولا تساوي شيئًا.

***

لم يمضِ أكثر من ربع ساعة وكان محمود وأسامة يجلسان مع مهند داخل ڤيلته، وبدا عليه الاضطراب الشديد، وكان يدخن بشراهة، وباءت كل محاولات الضابطين لتهدئته بالفشل، وبعد فترة وكان قد هدأ قليلًا، بدأ يوجه كلامه لمحمود ويقول:

– لقد استمعتُ إلى طلبك، وذهبتُ إلى الجواهرجي صباح اليوم بعد أن اتصلت به تليفونيًّا ورتبت معه موعدًا، وبمجرد أن أعطيته الجواهر حتى يفحصها ويثمنها، وجدتُه في غاية الانزعاج والاندهاش، ويخبرني أن كل المشغولات الذهبية والموروثة عن جدتي مُقلَّدة وليست ذهبًا، باستثناء قطعة أو قطعتين، وجميع الجواهر الماسية أيضًا مقلدة بصورة جيدة، ولكنها لا تتعدى كونها قطعًا من زجاج.

– هل كان مفتاح الخزينة بحوزتك طوال الوقت؟

– نعم، فمنذ أن تسلمته من الشرطة، والمفتاح لم يفارقني.

– ألم تسأل الجواهرجي عن قيمة الجواهر الأصلية، وخاصة أنه الجواهرجي الخاص بكم، أي من المؤكد أنكم اشتريتموها منه؟

– لقد وقع خبر الجواهر المزيفة على رأسي كالصاعقة التي أطاحت بعقلي، ولم أسأله أي سؤال.

– معنى هذا أن الجواهر تم استبدالها وأمك على قيد الحياة، فهل هي من فعلت ذلك بإرادتها، أم أن شخصًا آخر قد فعل؟

اندهش مهند، وقال:

– ولماذا تستبدل أمي جواهرها الأصلية بأخرى فالصو؟! أمي تملك مالًا وفيرًا ولا تحتاج لبيع جواهرها.

– على العموم كلها احتمالات قائمة؛ لأننا لا نعلم كيف كانت تفكر والدتك، ولكن دعني أسألك: هل كانت أمك معتادة أن ترتدي العقد الذي كانت تحتفظ به في البنك؟

– في مناسبات محدودة جدًّا، المرات التي ارتدته فيها لم تزد عن أصابع اليد الواحدة، وكانت تحرص أن تعيده إلى خزينة البنك في اليوم التالي مباشرة ولا تُبقيه في البيت أكثر من ليلة.

– أخبرتني أن الجواهر التي كانت موجودة في خزينة الڤيلا قسمان؛ الأول عبارة عن مشغولات ذهبية ورثته أمك عن جدتك، والقسم الثاني مجموعة من الجواهر الماسية اشترتها بنفسها، فهل تعلم متى اشترتها؟

– اشترتها على مدار سنين عديدة، وليست في فترة قصيرة.

سكت محمود لحظات قبل أن يتنهد ويقول:

– أي نستطيع أن نقول: إن الجزء الموروث عن أمها، إلى جانب جزء كبير مما اشترته بنفسها، كان موجودًا بالخزينة وقت أن كانت متزوجة بأبيك.

ودون أي تردد ردَّ مهند:

– نعم، هذا صحيح.

– هل تشكُّ في أحد؟

– أظنُّ أن عمران هو من سرقها وأعطى شخصًا ما إياها، قلَّدها ثم أعادها عمران لمكانها، وخاصة أن مفتاح الخزينة كانت تتركه أمي في الدولاب، وتتغيب طول النهار عن المنزل في معظم الأحيان.

***

داخل أحد المطاعم جلس محمود بصحبة أسامة يتناولان الغداء، ولم ينطق أحدهما بحرف منذ أن غادرا ڤيلا مهند، وقد لمح أسامة أن محمودًا مستغرقًا في تفكير عميق؛ فلم يشأ أن يزعجه، وبعد أن فرغا من تناول الطعام، وفي أثناء شربهما للقهوة إذا بمحمود يقطع هذا الصمت الطويل بقوله:

– ألم تلحظ شيئًا غريبًا على مهند؟

– فقط أنه كان شديد الغضب والتوتر على الجواهر الزائفة.

– وهل تذكر أمس عندما أبلغنا عن ضياع العقد، كيف كان حاله؟

– نعم، كان كمن سيفقد عقله.

– ألا ترى في هذا شيئًا غريبًا؟

– ولكن عفوًا يا أفندم، ما الغريب في ذلك؟ وماذا تتوقع أن يكون رد فعل شخص وهو يرى أمواله تُسرق منه؟

– الغريب أنه أخبرنا أن العقد الذي يزيد ثمنه عن ١٠ ملايين جنيه كان سيتبرع به للجمعيات الخيرية بناء على وصية أمه، أي إنه لم يكن ليستفيد به، فحتى لو غضب لسرقته، فليس طبيعيًّا أن يكون غضبه لهذا الحد.

والغريب غضبه وتوتره اليوم، رغم أن ثمن الجواهر يمثل جزءًا بسيطًا من تركة والدته، وهومَن قال قبل ذلك إن أموره المادية مستقرة ولا يهتم بتركة أمه.

والغريب عندما أخبرته بمقتل عمران البواب لم ينزعج بجزء من انزعاجه على الجواهر، ثم سكت لحظات وأردف:

– أمَّا الأغرب من هذا كله، أن اتهام أبيه بقتل عمران، وتعرضه الآن لعقوبة الإعدام، لم يزعجه بنسبة ١٪ مثل انزعاجه على العقد والجواهر.

ظل أسامة ينظر إلى محمود بانبهار ولم يُعقِّب بكلمة.

(٢٧)

"هل من جديد يا أستاذ خالد بخصوص بيع الأصول التي كانت تمتلكها أمي؟"، هكذا بدأ مهند حديثه وهو يجلس مع الأستاذ خالد في مكتبه، فردَّ عليه:

– أنا أبذل قصارى جهدي، ولكن لا تنسَ أن عملية البيع ليست بالأمر السهل؛ فالأصول متعددة ومختلفة، فهي أراضٍ زراعية وعقارات، ولكن اطمئن؛ فما زال أمامك أكثر من شهر في مصر، وأتوقع خلال تلك المدة أن نجد المشترين بإذن الله.

– لا أظن أني سأبقى في مصر للمدة التي ذكرتها، فأنا أمامي أسبوع على الأكثر لأعود إلى كندا.

– ولكنك أخبرتني من قبل أن أسرتك ستحضر أول الشهر؛ لتقضي الإجازة معك هنا، أليس كذلك؟

– للأسف، حدثت ظروف طارئة تستدعي سفري إلى كندا، ولن تتمكن أسرتي من الحضور.

– هذا سيُصعِّب عملية البيع أكثر، ولكن أعدك بأن أفعل أقصى ما في وسعي.

– وبالمناسبة أيضًا، أريدك أن تعرض الڤيلا للبيع.

اندهش خالد، وقال:

– ولماذا هذا التحول؟ أخبرتني من قبل أنك تريد الإبقاء على الڤيلا.

– أمي ماتت، وأبي في السجن ولا أعلم مصيره، وإن كانت كل المؤشرات لا تنبئ بالخير، فما الداعي لنزولي مصر بعد ذلك؟

– ولكن لديك أبناء لا بد ألّا تنقطع علاقتهم بوطنهم الأصلي مصر.

– لو حضرنا إلى مصر فمن الممكن أن نقيم وقتها في أي فندق، ولكن الڤيلا ستذكرني دائمًا بمقتل أمي، وأيضًا بمقتل البواب الذي تسبب في سجن أبي.

ردَّ خالد بنبرة مستسلمة:

– في كل الأحوال أنت صاحب القرار.

– أرجو أن أذكرك أني لا أهتم بأن نبيع بأعلى سعر، فقط كل ما يهمني أن أُنهي هذه الأمور في أسرع وقت.

– أعِدُك بألّا أدخر جهدًا؛ لأحقق لك ما تريد.

– ألا ترغب في أن تشتري لنفسك أي شيء من هذه الممتلكات؟

– لم أفكر من قبل، ولكن أعِدُك أن أفكر في الأمر.

– هل تعلم أني اكتشفتُ أمس، أن الجواهر الموجودة داخل خزينة الڤيلا مُقلَّدة، وليست أصلية؟

لمعت عينا خالد وقال:

– لا يمكن، ومَن فعل هذا؟

– أبلغتُ الشرطة وهم يبحثون في الأمر؟

– في الواقع أن قصة قتل السيدة مديحة، ومن بعدها قتل عمران، ثم سرقة العقد ومن بعده اكتشاف الجواهر المزيفة، كل هذه الأمور يصعب على العقل تصديقها، ولكن في الحقيقة نحن أمام مجرم ذي عقلية ليست عادية، بل أستطيع أن أجزم أنه عبقري.

ردَّ مهند بتهكم:

– والأدهى من ذلك أن ضباط المباحث عاجزون عن تفسير أي شيء، وكل ما يفعلونه هو توجيه أسئلة عقيمة لا يَملَّون منها.

– ولكن عليك أن تعلم، أن العميد محمود الذي يتولى القضية، واحد من أمهر ضباط المباحث إن لم يكن أمهرهم على الإطلاق، فسمعته يعلمها كل من له صلة بجرائم القتل، سواء ضباط أو محامين أو وكلاء نيابة.

– ولكنه للأسف لم يُظهر شيئًا من عبقريته في قضيتنا حتى الآن.

– أظن أن القضية صعبة.

– وأنا متأكد أنها أكبر من قدراته.

***

ترك محمود أسامة وتوجه إلى مكتبه، وظل عاكفًا على قراءة مفكرته، وما دوَّنه بها من ملاحظات وتحليل للمعلومات، ثم قرأ تقرير أسامة عن القتيلة، ولكنه هذه المرة لم يقرأ رسالة مديحة، وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل بقليل، وإذا بجرس تليفونه يرن، وكان المتصل أسامة، وبدأ كلامه قائلًا:

– أعتذر يا أفندم عن اتصالي في هذا الوقت المتأخر، فالمعلومات وصلت لي الآن فقط.

– لا تعتذر، فما زلت في مكتبي، أخبرني ماذا لديك؟

– أمر أظن أنه غريب، فلقد ذهبت نادية إلى مكتب الأستاذ خالد المحامي مساء اليوم نحو التاسعة مساء، وبقيت هناك نحو ساعة.

همهم محمود وقال:

– بالفعل أمر غريب.

– الأغرب يا أفندم، أنها نزلت من مكتبه بصحبته، وركبت معه سيارته.

– وأين ذهبا؟

– للأسف الشديد، فقد فريق المراقبة متابعتهما؛ لأن خالد كان يقود سيارته بسرعة كبيرة.

ضحك محمود وعلَّق ساخرًا:

– أتمنى أن يَمرَ يوم واحد دون أن يأتي شيء يقلب الأمور في القضية رأسًا على عقب.

ثم سكت لحظة وقال:

– أخاف أن يتضح في النهاية، أن كل شخص ورد اسمه في هذه القضية، اشترك في قتل مديحة.

(٢٨)

جلس محمود أمام خالد في مكتبه، يرتشف من فنجان القهوة، ويكرر ثناءه على نوعية البن، وبدأ كلامه قائلًا:

– اعذرني على تكرار زياراتي، والتسبب في تعطيلك عن عملك، ولكن حقيقة الأمر، فقد كانت المعلومات التي قلتَها لي في المرة السابقة، ذات نفعٍ هائل لي.

– أنا تحت أمرك في أي وقت.

– هل علمتَ أن جواهر مهند الموجودة داخل خزينة ڤيلته مقلدة؟

– نعم، فقد أخبرني أمس بهذا.

– وهل لك رأيٌ بخصوص هذا الأمر؟

– في الحقيقة لا.

– هل أخبرتَك القتيلة يومًا، أنها استبدلت جواهرها الأصلية بأخرى مقلدة، أو أنها تفكر في أن تفعل ذلك؟

– لا، على الإطلاق.

– ما رأيك في مهند؟

– من أي ناحية؟

– شخصيته بصفة عامة.

– حتى أكون أمينًا معك، يجب أن أذكرك بأن مهند ترك مصر وهو في الثامنة عشرة من عمره، وبعد ذلك أصبحت زياراته لمصر محدودة، ولذا فالمرات التي التقيتُه فيها تكاد لا تزيد عن أصابع اليد الواحدة، وعلى فترات متباعدة جدًّا، وكان فيها دائمًا بصحبة والدته، ولكن في المجمل، أستطيع أن أقول: إنه شخص به بعض الغرور، انفعالي، لا يُقدّر المال حَقَّ قدره.

– كيف تقول: إنه لا يُقدّر المال، وأنا رأيتُه وقلبه يكاد يتوقف عند علمه بسرقة العقد واكتشافه أن الجواهر مقلدة!

– أظنُّ أنك أسأت فهمي، أنا أقصد أنه شخص من الممكن أن يُنهي على تركة والدته في خلال عام أو اثنين على الأكثر، وسأضرب لك مثالًا، لقد جاء وأخبرني في أول لقاء معه بعد مقتل أمه، برغبته في تسييل التركة، وطلب بيع الأصول كافة، وأعطاني مهلة لمدة شهرين لأفعل ذلك، فأخبرته بأن شهرين مدة غير كافية؛ لأن الأملاك متنوعة وكثيرة، ولكني وعدته بأن أبذل قصارى جهدي.

وإذا به بالأمس يأتي؛ ليخبرني أن عملية البيع لا بد أن تتم في مهلة أسبوع، وليس شهرين كما اتفقنا من قبل؛ لأنه مضطر للعودة إلى كندا نظرًا لحدوث ظروف طارئة هناك، بل ظَلَّ يشدد، أن الحصول على مبالغ عالية في عملية البيع لا تهمه بقدر سرعة إتمام البيع.

بل الأدهى من ذلك، أنه طلب مني بيع الڤيلا هي الأخرى، وكان من قبل قد أخبرني أنه سيُبقي عليها؛ لتكون له مقر إقامة عندما يأتي هو وأولاده إلى مصر، وكنت وافقتُه على هذا الرأي وأثنيتُ عليه، ولكن ها هو يريد أن يتخلص منها هي الأخرى بدعوى التشاؤم، فأمه قُتِلت فيها، وعمران بوابها قد قُتل وتسبب في سجن أبيه.

– هل عرضتَ عليه أن يسافر، وتقوم أنت بترتيب المشتريين على مهل، ثم تستدعيه وقت إتمام البيع؟

– الواقع لم أعرض عليه هذا.

فكر محمود قليلًا، وقال:

– هل يمكنك أن تُسدي لي خدمة، وتتصل به الآن، وتعرض عليه هذا العرض؟

– بكل سرور، ولكن ما الذي تفكر فيه؟

– لم تتبلور الصورة كاملة في ذهني، ولكن أعدك بمجرد اكتمالها سأخبرك بها فورًا.

فهم خالد أن محمود لا يريد أن يُصرح له بما يدور في عقله، فلم يُعقب، وأمسك بالتليفون، واتصل بمهند، وأبلغه الرسالة، واستمع إليه قليلًا، ثم تبادل معه التحية، وأغلق الخط، ونظر إلى محمود قائلًا:

– لقد رفض العرض بصورة قاطعة، وصمم على ما قاله لي من قبل.

– أشكرك جزيلًا، وأعود لاستكمال حديثي وأسأل: كيف كانت العلاقة بين مهند وأمه؟

– عفوًا، لا أفهم السؤال جيدًا.

– أقصد: هل كان مهند ابنًا مطيعًا لوالدته ولم تكن بينهما مشكلات، أم أن المشكلات بينهما كانت كثيرة؟

– أظنُّ أنها غضبت منه غضبًا شديدًا عندما أقام بكندا وتركها وحيدة، بعد ذلك تعودت غيابه وخفت حدة غضبها منه، ولكن في الفترة الأخيرة، لاحظت أنها كانت ثائرة عليه جدًّا، ولكنها لم تذكر لي السبب قط.

– هل يمكنك أن توضح أكثر؟

– ذات يوم، كانت تزورني في مكتبي، واتصل بي مصادفة ابني ماجد وعمره ١١ سنة، يطلب مني شراء بعض الأشياء له، ولمَّا أغلقتُ معه التليفون، وجدتُها شاردة، وبدأت تتكلم معي كما لو كانت تحدث نفسها، وتكلمت بنبرة منفعلة، وبصورة سلبية عن الأبناء للغاية، ولمَّا حاولتُ أن أهدئ من انفعالها، أنهت كلامها معي، وقالت بالحرف الواحد:

"صدقني، كل المشكلات التي أنا فيها منذ ٣٠ سنة سببها ابني".

ثم بدأت في البكاء، فهدأتُها، وغيَّرتُ دفة الحديث.

– متى حدث هذا؟

– تقريبًا قبل وفاتها بشهر واحد.

– هل زكي ما زال مبقيًا على صمته؟

– نعم.

– هل تحدثت مع زوجته بخصوص هذا الأمر؟

– نعم، ولكنها ترى أنه أدرى بمصلحته.

– هل مهند يزور والده؟

ضحك خالد ساخرًا، وقال:

– لقد حضر إليَّ أمس، وتكلم معي بخصوص التركة والجواهر المزيفة لأكثر من ساعة، ولم يتذكر أن يسألني عن قضية والده.

– هل أنت منتظم في حضور التحقيقات مع زكي؟

– بالطبع، فأنا محاميه.

– اعذرني في هذا السؤال، ولكن من يدفع لك أتعابك في هذه القضية؟

– في الحقيقة مهند من كلفني بتولي القضية، ولكنه لم يتحدث معي بشأن الأتعاب، بل أستطيع أن أقول، إنه بعد أول يوم تحقيق في القضية، أصبح لا يتحدث معي بشأنها على الإطلاق.

– هل سألك زكي في أي مرة عن مهند؟

– لا، ثم سكت لحظة وأردف:

– ولكني أتذكر الآن أمرًا غريبًا لفت انتباهي، فقد سألني بشغف عن التركة ومتى سيستلمها مهند.

– وماذا قلت له؟

– تهكمتُ عليه، وسألته كيف يبقى صامتًا يرفض أن ينطق بحرف بخصوص جريمة قتل هو المتهم الرئيسي فيها، وينطق فقط؛ ليطمئن على تركة ابنه.

– وبماذا ردَّ عليك؟

– هل تصدق أنه كرر عليَّ سؤاله عن التركة! وكأنه لم يسمع كلمة مما قلته، أو كما لو كان يعيش في عالم آخر.

– ما علاقة مهند بزوجة أبيه؟

– عرفت من مهند أنها سيئة.

– وهل تعلم السبب؟

– ربما لأنه يتصور أنها السبب في طلاق أمه، ولكن للحق لا أعلم علم اليقين.

– أعرف أن زكيًّا لديه بنت من زوجته الجديدة، فما علاقة مهند بها؟

– لا أعلم، ولكن مهندًا لم يذكرها أمامي على الإطلاق.

وقف محمود، وشدَّ على يد خالد يشكره على حسن تعاونه معه، ثم قال فجأة:

– سؤالي الأخير: هل تعرف السيدة نادية صديقة القتيلة؟

– بالطبع، فأنا محاميها هي وزوجها.

اندهش محمود وقال:

– يا لها من مصادفة أن تكون محاميًا للقتيلة وصديقتها!

– ولكنها ليست مصادفة، السيدة مديحة هي من عرفتني إلى السيدة نادية منذ نحو سنتين، ومن وقتها وأنا محاميها.

– وما انطباعك عنها؟

– سيدة فاضلة وزوجها رجل ذو سمعة طيبة، وبالمناسبة هي واحدة ممن عرضت عليهم شراء ممتلكات مهند، واصطحبتها أمس لمعاينة شقة على النيل من بين أصول التركة، وأعجبتها، ومن المحتمل أن تشتريها.

***

قبل أن ينام محمود، دوّن في مفكرته الملاحظات التالية:

١- خالد يرى أن مهندًا شخص مغرور انفعالي ومستهتر في تعامله مع المال.

٢- مهند يريد أن يترك مصر في أسرع وقت.

٣- مديحة ناقمة على مهند قبل وفاتها بشهر.

٤- مهند لا يزور والده في السجن.

٥- زكي لم ينطق إلّا ليسأل عن التركة.

كان محمود قد قام بتدوين الملاحظات في المفكرة في صفحات مستقلة، كل صفحة تشمل ملاحظات خاصة بكل شخص، فوجد نفسه في هذه الليلة لا يقرأ إلّا صفحة الملاحظات الخاصة بمهند، ظل يقرأ فيها ويعيد قراءتها أكثر من ساعة، وكان كلما قرأها، يجد نفسه يردد: "هناك شيء خطأ".

(٢٩)

في الصباح وعلى مائدة الإفطار، لاحظ محمود أن زوجته يبدو على وجهها ملامح حزن، فسألها عن الأمر فقالت:

- زوج منيرة صديقتي تُوفي منذ نحو نصف ساعة.

- لا حول ولا قوة إلّا بالله، وكيف عرفتِ؟

- هو محجوز في الرعاية المركزة بأحد المستشفيات الخاصة، ومديرة هذا المستشفى صديقة لي، وكنت أكلمها يوميًّا صباحًا أعرف منها الأخبار وأنقلها لمنيرة، واليوم أبلغتني أنه تُوفي فقط منذ نصف ساعة.

- وماذا فعلت زوجته عندما أبلغتِها؟

ردَّت ناهد بحسم:

- أنا لم أبلغها، ولن أبلغها.

– لماذا؟

ردَّت ناهد باستغراب:

– هل تمزح يا محمود؟ أنت تعلم أن أصعب شيء أن تبلغ شخص بوفاة إنسان عزيز عليه، أنا فضّلت أن تعرف هي بنفسها من المستشفى.

سقطت الملعقة التي كانت في يد محمود، وهبَّ واقفًا، وأمسك زوجته من كتفيها، وهزها بقوة، قائلًا:

– أنتِ أعظم زوجة في الدنيا.

فتحت ناهد فمها شاغرة، وظلت تتابع بعينيها المحملقتين زوجها وهو يغادر المنزل مهرولًا، وقالت همسًا:

– "محمود مسه الجنون"!

***

– "أنا هنا من أجل مصلحتك".

هكذا بدأ محمود كلامه مع زكي، بعد أن أحضروه له من محبسه، ثم أردف:

– يمكنك ألّا تتكلم معي، وتستمر على صمتك، ولكن ليكن في علمك أنى الوحيد القادر على إخراجك من هذه المحنة، ومهما تكن حساباتك التي تدور في عقلك، فأنا اؤكد لك أنها خاطئة.

ظل زكي يحملق في محمود في ريبة وخوف، ولكنه لم ينطق ببنت شفة، فلم ييأس محمود وقال:

– لقد قمت بتحريات عن أحوالك المادية، وعرفت أنك مُعرِّض للسجن، ومن المؤكد أنك تعتمد على تركة ابنك في إنقاذك.

ولكن لك أن تتأكد أولًا، أن السجن أفضل من حبل المشنقة، والذي بات قريبًا جدًّا منك، وأن ابنك لن يقف بجانبك في محنتك، بل لن يعطيك مليمًا واحدًا كما تظن، فمن الأفضل لك أن تتكلم قبل فوات الأوان.

بدأت علامات الذعر والخوف تظهر بوضوح على وجه زكي، فرأى محمود أنها اللحظة المناسبة ليجهز عليه، فقال:

– ابنك يرتب للسفر باكرًا، باع كل أملاكه، بعد أن أحضر له المحامي رجل أعمال، اشترى منه كل أصول التركة، وقام بتحويل كل أمواله إلى كندا، وباكرًا سيكون هناك.

خرج زكي عن صمته وصرخ، قائلًا:

– ماذا تقول؟ مهند لا يمكن أن يفعل هذا.

عرف محمود أنه أصاب الهدف، فقال بحسم:

– بل فعل، وإن كنت تريد التأكد فسأتصل لك بالمحامي وتأكد منه بنفسك، وبالفعل اتصل محمود بخالد (وكان قد اتفق معه على هذا السيناريو

قبل أن يقابل زكي بدقائق)، وناول التليفون لزكي، فأكد خالد له المعلومة، فقال له زكي:

– ولكن عندما سألتك عن التركة منذ يومين، لم تخبرني بشيء من هذا.

فردَّ خالد بكل دهاء:

– كانت هذه تعليمات مهند، وهو صاحب التركة، وصاحب الشأن في إعطاء أي معلومات بخصوصها، وأنا أخبرك الآن لأن كل شيء تمَّ، وانتهى الأمر، ولم يعد هناك أي أسرار مطلوب مني إخفاؤها.

غطى العرق وجه زكي بعد أن أغلق التليفون مع المحامي، وطلب كوبًا من الماء، وبعد أن شربه، قال لمحمود:

– اسأل ما شئتَ، أنا تحت أمرك.

– لن أسأل شيئًا، أريدك أن تحكي لي الحقيقة منذ زواجك بالقتيلة وحتى وقتنا هذا، وأعدك إن أخبرتني بكل شيء، فسأحصل لك على البراءة.

شرد زكي ببصره، وبدأ يُلملم أشلاء ذكريات تبعثرت على مدى ثلاثين عام، وتكلم بصوت منكسر، فقال:

– بدأت الحكاية منذ نحو ثلاثين سنة، كنت وقتها مهندسًا معماريًّا صغير السن لا يتجاوز عمري السادسة والعشرين عامًا، نشأتُ في أسرة فقيرة،

استطاعت أن تدبر نفقات تعليمي بصعوبة، حرمتني الدنيا من متع الحياة طوال أيام طفولتي وصباي وشبابي، كان كل وقتي وتفكيري ينحصر في دراستي، حتى تخرجت، وكنت مهندسًا نابغًا، وعملت في أحد المكاتب الاستشارية الكبرى.

شاءت الأقدار أن أكون مهندس المشروع لإحدى العمارات السكنية المملوكة لوالد مديحة، والتي كان يشرف على إنشائها المكتب الذي أعمل به، تعرفتُ إليه، وبمرور الوقت، أعجبه ذكائي ونشاطي وطاعتي العمياء لأي طلبٍ يطلبه.

وفي أحد الأيام وجدته يمر عليَّ في العمارة، ويصطحبني معه إلى أحد المطاعم الفخمة المطلة على النيل والتي كنت أخشى أن أمر بجوارها، وبعد أن جلسنا وطلب لنا غداء، بدأ كلامه، بأنه يرى فيَّ الابن الذي لم ينجبه، ولن يطمئن على ابنته الوحيدة إلّا إذا تزوجتها.

لم أستطع وقتها أن أستوعب ما يقول، أو بمعنى آخر لم أستطع أن أصدق ما قاله، وكان كل ما سيطر على عقلي، أنني في تلك اللحظة امتلكت مصباح علاء الدين، الذي طالما حلمت به وأنا صغير، فعوضني بنعم الخيال عن حرمان الواقع، ولم أردّ بحرف، وكان كل ما فعلته، أن قمتُ وقبَّلت يده وجبينه، ووعدته بأن أكون له الابن الذي تمنَّاه.

عُدتُ إلى أسرتي، وأخبرتهم بالأمر، ولم تكن حالة الذهول التي انتابتني قد زالت عني بعد، وبالطبع لم يصدقوني، بل إن أمي تصورت أني أُصبتُ بضربة شمس؛ جراء وقوفي طويلًا في الموقع، وبعد معاناة طويلة صدقوني، وعشنا معًا في حالة ذهول ممتعة.

ليلتها لم يقرب النوم جفوني، وفجأة تذكرت أني لم أرَ العروسة، وجاءني هاتف حدَّثني بأن العروسة لا بد أن تكون دميمة؛ ولذلك اختارني هذا الرجل الغني ولم يهتم بفقري.

لكني سريعًا أخرستُ هذا الهاتف، وهمستُ لنفسي بأن النساء من السهل الحصول عليهن، لكن الثروات تأتي نادرًا، فنسيت تمامًا التفكير في شكل العروسة، وركزتُ فقط في حياة النعيم التي تنتظرني وأنتظرها.

في اليوم التالي، كنتُ في ڤيلا والد مديحة بالمهندسين، وكان هو من حدد موعدًا؛ لأزورهم وأتعرف إلى الأسرة، وكدت لا أصدق عيني، وأنا أرى مديحة، وأبوها يقدمها لي بأنها العروسة.

كانت غاية في الجمال، وقتها تأكدت أن ما يحدث لي، لا يستطيع حتى مصباح علاء الدين أن يحققه، وجلست هناك أكثر من ثلاث ساعات، وتناولت معهم العشاء، ومن فرط سعادتي لم أنتبه لشيء واحد، وهو أن مديحة كانت لا تبدو عليها علامات لأي فرحة.

في اليوم التالي كرر والد مديحة ما فعله من قبل، فقد مرَّ عليَّ في الموقع، واصطحبني معه إلى نفس المطعم السابق، وبعد أن طلب الغداء، وجدته يحدثني بما لم يخطر على بالي قط.

أخبرني أن شخصًا ما، غرر بمديحة، وهي الآن حامل في شهرين، وهو يستطيع أن يزوجها له، ولكنه يراني أنا من يستحقها، فإن وافقتُ، سيتم كتابة الجنين باسمي، ولن يعرف أحد بهذا الأمر؛ لأنه حتى والد الطفل لا يعلم بحمل مديحة.

في نفس اللحظة، فتح حقيبة جلدية كانت موضوعة على مقعد بجواره، فرأيتُ بها مالًا كثيرًا، وكان المبلغ ١٠٠ ألف جنيه، أخبرني أنه لي من أجل تكاليف الزواج إن قبلت عرضه.

وبعد كمّ الأحلام التي حلمتُ بها في اليومين الماضيين، وأمام هذا المال الذي لم أرَ عُشره على مدى حياتي، لم تكن لديَّ أي إرادة للرفض، وبالفعل وافقتُ، وتم الزواج في غضون أسبوع.

منذ أول ليلة في زواجنا، اتفقت معي مديحة أنى لن أقترب منها حتى تضع مولودها، وبالفعل نفذتُ ما أرادت، ولكن بعد أن أنجبت مهندًا، وكتبناه باسمي، إذا بها تصارحني بأنها لم تحبني يومًا، وأنها لم تحب سوى والد ابنها، ولن تفكر في شخصٍ بعده، وأن زواجنا كان صفقة، وهي تريد أن تكمل

معي الصفقة، باتفاق فحواه، أني أعيش معها أمام الناس كزوج، ولكن في الواقع ليس لي عندها أي حقوق زوجية، وفي المقابل سأنعم معها بثروتها.

فسألتها: وما سبب رغبتها في أن تظل معي، وتحكم على نفسها بهذه الحياة؟ فأجابتني: إنها لن تتزوج بعد والد مهند أي رجل آخر، وأنها تريد أن يتربى مهند بين أبٍ وأم.

فطلبت منها أن تصارحني إن كانت لا تزال على علاقتها بوالد مهند، فأقسمت أنها لم تره منذ زواجنا ولن تراه ثانية، وللحق كنت بدأتُ أعتاد حياة الأغنياء، ولم أعد قادرًا على العودة لحياة الفقر مرة أخرى، فوافقتُ أيضًا على هذه الصفقة.

استطعت مع الأيام أن أفتح مكتبًا هندسيًّا مع أحد أصدقائي، ونجحت، وأصبح لي مالي الخاص، فتزوجت، وعلمت مديحة بذلك، فطلبت مني أن أُطلقها، وبالفعل نفذتُ؛ لأني أصبحت لا أتحمل مواصلة هذه الحياة، وخاصة بعد أن أصبح لديَّ الاكتفاء الذاتي ماديًّا، ولم أعد بحاجة لنقودها.

حتى حدث أن تعثرتُ ماديًّا بسبب أحوال البلاد الاقتصادية بعد ثورة يناير، وزادت ديوني، وهرب شريكي، ولكني استطعتُ أن أجدول ديوني مع البنك.

بعد فترة، أصبح الأمر غاية في الصعوبة، للدرجة التي دفعتني لأن أحول كل ما أملك إلى أموال سائلة؛ لأسدد للبنك مستحقاته، ولكن تبقى عليَّ

مبلغ ١٠ ملايين جنيه، يجب سدادها قبل شهر سبتمبر المقبل، وإلّا فالسجن لا محالة، ولمَّا وجدتُ جميع الأبواب أُغلقت أمامي، جاءتني فكرة شيطانية.

تكلمت مع مديحة، وحكيتُ لها عن ظروفي بكل صدق، وطلبت منها أن تقرضني المبلغ، ووعدتها بتسديده بمجرد تحسُّن أحوالي، لكنها سخرت مني بشدة، واتهمتني بالجنون، فهددتها بأني سأخبر مهندًا بحقيقة نسبه، وسأرسل له نتيجة تحليل DNA ليتأكد من صدق كلامي، ووقتها ستفقد صورتها المحترمة أمام ابنها، بل سينتشر الخبر في مصر، وستكون فضيحة لها، وهي سيدة مجتمع مشهورة.

لكني فوجئت بها تضحك وتقول بسخرية وتهكم:

- "سيراني امرأة غير محترمة! وماذا عنك! كيف سيراك أنت وكيف ستراك زوجتك وابنتك؟!".

أجبتُها: إن السجن ينتظرني إن لم أسدد المال قبل شهر سبتمبر، ووقتها ستكون أيضًا صورتي سيئة أمام زوجتي وابنتي، وأنا أفضل أن تكون سيئة وأنا خارج السجن، على أن تكون سيئة وأنا داخله.

أكدت لها أني مُصمم على ذلك، وأعطيتُها مهلة شهرًا؛ لتفكر.

وهنا قاطعه محمود سائلًا:

- ومتى كان ذلك؟

– ليلة عيد الأم، فأنا نادرًا ما أتصل بها، فقط عندما يكون هناك أمر طارئ خاص بمهند، ويريدني أن أبلغها رسالة عندما يعجز في الوصول إليها، فتحينت فرصة عيد الأم، واتصلت بها متعللًا بأن مهندًا فشل في الاتصال بها، وكلفني أن أبلغها تهنئته بهذه المناسبة، ثم أبلغتها ما سبق وحكيتُه لك.

سكت وشرب بعض الماء، وأكمل حكايته يقول:

– بعد أن مُضي شهر، اتصلتُ بها مرة أخرى، فإذا بها تغلق الخط في وجهي بعد أن أبلغتني برفضها لطلبي.

جُن جنوني، وبدأت أرسل لها رسائل تهديد على الموبايل، وأؤكد لها بأني سأنفذ تهديدي، ولكنها لم تهتم، كانت تلك الأحداث في الأيام العشرة الأخيرة من شهر إبريل، وفوجئتُ أول أسبوع من شهر مايو، بمهند موجود في مصر، وجاء لزيارتي، وأبلغني أنه جاء لمصر لمدة ثلاثة أيام؛ لأن أمه تنوي الزواج، وأنه يشكُّ أن من سيتزوجها نصاب، وسيستولى على أموالها.

رجوتُه أن يحاول منعها وإلّا فلن ينال شيئًا من أموال أمه، ولم أره بعد ذلك، ووجدته يكلمني من كندا، ويقول إنه ترك مصر منذ يومين بعد أن تشاجر مع أمه، وأنها مصممة على الزواج.

بعد أن أغلقتُ التليفون مع مهند، اتصلت فورًا كالمجنون بمديحة، وأغلظت لها الأيمان أني سأنفذ تهديدي وأخبر مهندًا بالحقيقة، وكنت وقتها

أنوي أن أفعل ذلك بالفعل؛ لأني تأكدت أن هذا آخر أمل لي؛ حتى أنجو من السجن.

وإذا بمديحة تضحك مقهقهة وتقول بالحرف الواحد:

"لقد أخبرتُ أنا مهندًا بالحقيقة".

ثم أغلقت الخط بعد أن حذرتني أن أتصل بها مرة أخرى.

انتابني الذهول لدقائق، ولكن بعدها قلتُ في نفسي، كيف اعترفت لمهند، وهو لتوِّه كان يتكلم معي، وكان طبيعيًّا كعادته.

لكن عدتُ وقلت لنفسي: إن صوت مديحة يوحي بالصدق، وطريقتها معي توحي بالثقة والقوة، ولا يبدو عليها أي شعور بالقلق.

بقيت في هذه الحيرة ولم يغمض لي جفن، وبعد يومين، حاولت الاتصال بها، ولكنها أغلقت الخط قبل أن تردّ، وجربت أن أتصل بها من رقم لا تعرفه، وبمجرد أن سمعت صوتي، صرخت وأغلقت التليفون.

أصيب عقلي بالشلل، ولم أعد أفهم شيئًا، فالطريقة التي تكلمني بها مديحة، لا تدع مجالًا للشك في أنها أخبرت مهندًا، والطريقة التي يتعامل بها مهند معي هي نفس طريقته المعتادة، بل إنه أصبح يتصل بي أكثر مما قبل.

كان دائمًا يُبدي أسفه على أن أمه ستتزوج من نصاب، وكان يقسم لي إنه لم يكن يطمع لنفسه في شيءٍ من تركتها؛ لأنه لا يحتاج أموالها، ولكنه يصعب عليه أن يرى نصابًا يأتي ويسرق أموالها.

بعد تفكير طويل، قررت أن عليَّ أن أنسى الآن التفكير في إن كانت مديحة أخبرت مهندًا أم لا، والبدء في التحرك فورًا، وأن أول خطوة لا بد أن أقوم بها، هي منع زواج مديحة بأي ثمن.

ذهبتُ إلى ڤيلتها، وتقابلت مع عمران البواب، وكان مهند حكى لي مرة أنه رجل يعبد المال، وكان عمران يعرفني حيث قابلتُه ذات مرة وأنا أصطحب مهندًا إلى الڤيلا بسيارتي، وعقدتُ معه اتفاقًا على أن ينقل لي أخبار مديحة، ومَن يقوم بزيارتها، وأي أمور غريبة تحدث عندها في الڤيلا، مقابل مبلغ كبير من المال كل شهر.

ومع مرور الأيام، بدأت أراني أقترب من السجن بشدة، وإذا بكلام مهند وحديثه المتكرر عن عدم احتياجه لتركة أمه، يرنُّ في أذني، فهداني تفكيري إلى أن طريق نجاتي الوحيد من السجن، هو موت مديحة، وبدأ بالفعل يزداد يقيني بقتلها يومًا بعد يوم.

حتى كان يوم مقتلها، وجدتُ عمران يتصل بي صباحًا، ويخبرني أن أمرًا غريبًا حدث، وهو أن مديحة أعطته هو والشغالة إجازة من الساعة الثانية ظهرًا على غير عادتها.

وجدتني دون أن أشعر أتصل بها، وصدقني لم أكن أعرف ما سأقوله لها، ولكنني فوجئتُ بها، تردّ والسعادة تملأ صوتها، وتقول بالحرف:

"أرجوك لا تتصل بي مرة ثانية؛ لأني سأتزوج اليوم، وزوجي لن يرضيه اتصالك". وأنهت المكالمة بقهقهة عالية، وأغلقت هي الخط دون أن تنتظر مني كلمة.

سكت زكي لحظات، التقط أنفاسه المتلاحقة، وأكمل:

- انتابني غضبٌ لم ينتبني من قبل، واستعدتُ شريط حياتي معها، وتذكرت الذل الذي كانت تُجرِّعه لي كل ليلة طول زواجنا، وملأ الحقد قلبي، وأيقنتُ لحظتها أن قتلها أصبح مسألة حتمية، وإلّا فالسجن مصيري.

وبالفعل ذهبت إلى الڤيلا قبل الثانية بقليل، وظللت أرقب المكان، ورأيتُ الشغالة ومن بعدها عمران وأسرته يغادرون عند الثانية تقريبًا، ولكن حدث ما لم يكن في حسباني.

وجدت قدميَّ وقد تسمرتا في مكانيهما، وكلما هممتُ أن أتحرك، أجد جسدي عاجزًا مشلولًا، فأنا لم أكن يومًا قاتلا، أو حتى فكرتُ في قتل إنسان من قبل.

بقيتُ على هذه الحالة عاجزًا على اتخاذ أي موقف، فلا أنا قادر على دخول الڤيلا وقتلها، ولا أنا قادر على مغادرة المكان، حتى فوجئتُ في الساعة الرابعة والربع تقريبا، بسالم ابن عمها يدخل الڤيلا، ثم يخرج منها بعد نحو ربع ساعة مهرولًا، وينطلق بسيارته القديمة كالمجنون، على الرغم أنه وقت

دخوله، كان يبدو عليه الهدوء، فبقيتُ أفكر فيما حدث بينهما، وبعد دقائق قليلة من خروجه، وجدتني أدخل الڤيلا، وكأن شيئًا يدفعني دفعًا.

وجدت باب الڤيلا الداخلي مفتوحًا، دخلتُ، فرأيتُ مديحة ملقاة على وجهها، وخنجر مغروس في رقبتها من الخلف، فبقيتُ أحملق فيها، وأقف مشلولًا غير قادر على الحركة، وبعد لحظات، أطلقت لقدميَّ العنان، وانطلقت لأخرج من الڤيلا.

عند باب الڤيلا الخارجي، إذا بي أصطدم بعمران، ولَمَّا رآني على هذه الحالة، سألني عن السبب، ولكني لم أجبه، وأكملت جريي حتى سيارتي، وانطلقت بها كالمجنون، ولم تمضِ أكثر من ثلاث دقائق، حتى وجدتُ تليفوني يرنُّ، وكان المتصل هو عمران.

اتصل ليطمئنني، ويخبرني أنه سيحفظ السر، ولن يخبر أحدًا أنه رآني، ثم أغلق التليفون، وتركني في حالة من الذهول، للدرجة التي جعلتني، لا أستطيع أن أردَّ عليه بكلمة واحدة، أدافع بها عن نفسي.

جاءني عمران المكتب، في نفس اليوم الذي جئت سيادتك لي، وطلب مني مبلغ ٢٠٠ ألف جنيه، فأقسمتُ له أني لم أقتل مديحة، وأبديتُ له عدم خوفي منه، وعرضتُ عليه مبلغ ١٠ آلاف جنيه، يأخذها فورًا، على أن ينسى هذا الأمر، وأوضحتُ له أني أعطيه هذا المبلغ؛ لأني فقط لا أرغب في إزعاج الشرطة بأسئلتها، وليس خوفًا من تهديده، ولكنه ثار، وأقسم أنه سيبلغ الشرطة إن لم أدفع له المبلغ الذي يطلبه، وأعطاني مهلة يومين وانصرف.

وصلت أنت بعده بدقائق معدودة، وعندما سألتني عن علاقتي به، تأكدت أنك رأيته وهو ينصرف من عندي، فرجعت واتصلت به، ولقنته الأجوبة التي يجب أن يجيب بها، إذا ما سألته عن علاقتي به؛ حتى لا يكون هناك تعارُض بيننا.

هنا تأكد عمران أني خائف، فطلب مني تدبير نصف المبلغ في هذا اليوم بأي شكل، ووجدتني أرضخ لطلبه، فأبلغني أن أقابله الساعة السادسة، ووصف لي المكان، وهو نفس المكان الذي قُتِل فيه، ولم أتمكن من تدبير سوى ٥٠ ألف جنيه، أي ربع ما طلبه وليس نصفه.

ذهبتُ لمقابلته ولكني تأخرتُ عن الموعد قليلًا، ووصلتُ نحو الساعة السادسة والربع، فرأيتُ ما لا أتخيَّله.

رأيت مهندًا يجرى مهرولًا من المكان، لكنه لم يَرَني، وعندما اقتربتُ، وجدت عمران مقتولًا، فعرفتُ أن مهندًا قتله، ولكن لم أعرف السبب.

بعد القبض عليَّ، اختليتُ بمهند لدقائق قليلة قبل التحقيق معي، وسألته: ماذا كان يفعل في مكان الجريمة؟ فبدا عليه الذعر الشديد، ولكنه أقسم بأغلظ الأيمان أنه لم يقتل عمران، وأنه كان ذاهبًا للقائه هناك؛ لأن عمران كان يبتزُّه هو الآخر بسببي، فقد أخبره أنه رآني يوم الجريمة، وعندما ذهب لمقابلته وجده مقتولًا.

طمأنته بأني لن أذكر شيئًا في التحقيق عنه، ووعدني بأن سيوكل فريقًا من أكبر المحامين للدفاع عني وإثبات براءتي، كما أخبرني بأنه أبلغ محاميه بسرعة تسييل التركة حتى يوفر المال الذي أحتاجه، وكنتُ أبلغتُه يوم عزاء أمه بمدى احتياجي للمال، ووجدتُه يفاجئني بأنه لن يعطيني المبلغ الذي أحتاجه فقط، وإنما قرَّر أن يترك التركة كلها لي، لأنه لن يحتاج إلى شيءٍ منها؛ لأن ظروفه المالية مستقرة، وللحق صدقته في كل ما قاله.

وهنا قاطعه محمود وسأله:

– ولكن ألم تسأله: لماذا يذهب للقاء عمران في هذا المكان المهجور، وهو يستطيع أن يدير معه أي اتفاقات داخل الڤيلا؟

– بل سألته، وردَّ بأن عمران أبلغه بموعد لقائي معه، وطلب منه الحضور وأن يراقب من بعيد، حتى يتأكد بصدق ما قاله له عني.

– هل كان مهند يمتلك مسدسًا؟

– لا، ولكن مديحة ورثت واحدًا عن أبيها.

– وأين كانت تحتفظ به؟

– طوال فترة زواجنا، كانت تحتفظ به في خزينة المنزل.

– ولكنه لم يكن موجودًا بها عند وفاتها؟

– ليس لديَّ أي علم، فلا تنسَ أني منفصل عنها منذ ١٠ سنوات.

شرد محمود قليلًا، ثم قال:

– هل سألته عن فريق الدفاع الذي وعدك به؟

– وجدتُه في أول تحقيق مع النيابة، يحضر مصطحبًا فقط الأستاذ خالد المحامي، وبعد انتهاء التحقيق، انفردت به جانبًا، وسألته بخصوص هذا الأمر، فقال إن خالد واحد من أكبر المحامين في البلد، وأنه ينتظر بعض الوقت، لإحضار محامين آخرين، ولكنه لا يريد إحراجه الآن.

– ألم تخشَ في أي لحظة ألّا ينجح المحامون في إثبات براءتك كما وعدك مهند، وتثبت التهمة عليك؟

– بعد أن تم القبض عليَّ، رأيت أني لو تكلمت وقلت حقيقة علاقتي بعمران، فسأثبت التهمة على نفسي، ومن المحتمل أيضًا أن أُتهم بقتل مديحة، فلم يكن أمامي إلّا أن أستمع لنصيحة مهند، وأن ألتزم الصمت.

سكت زكي قليلًا وابتسم لأول مرة منذ بدأ الحكي وقال:

– كما حدث معي أمر سأحكيه لك، وأرجو أن تصدقني أنه ليس مجاملة.

فبادله محمود الابتسام، وقال:

– سأصدقك، ما هو؟

– انتابتني حالة من الانهيار في أول ليلة لي في الحبس، قبل أن أُعرض على النيابة، فأراد أحد أمناء الشرطة، المسؤولين عن حراستي، أن يهدئ من روعي، فقال لي بالحرف:

"اطمئن، قضيتك في يد أذكى ضابط مباحث في الإدارة، فإن كنت بريئًا تأكد أنه سيقبض على الجاني الحقيقي".

وكان لكلماته أطيب الأثر في نفسي؛ لأني متأكد من براءتي، حتى أنني أبلغتُ زوجتي بهذا الكلام.

شكره محمود على مديحه وثقته، وطلب منه أن يكمل حكايته.

– التزمت الصمت، ولم أستمع لنصح المحامي أو وكيل النيابة لأن أتكلم، حتى وجدتك اليوم، تأتي وتخبرني أن مهندًا يجهز نفسه للسفر، وأنه قام بتحويل أمواله للخارج، فأيقنت أن مديحة كانت تقول الحقيقة، عندما أخبرتني أنها صارحتُه بكل شيء، وعرف أني لست أباه، وهو الآن ينتقم مني، بسجني بتهمة قتل، هو يعلم أني لم أرتكبها، بالإضافة إلى السجن الذي ينتظرني بسبب ديوني.

سكت زكي، وبدأت دمعة في النزول من عينه، وقال بانكسار:

– أقسم لك أني أخبرتك بكل شيء، ولم أُخفِ عنك شيئًا.

ربت محمود على كتفه، وقال:

– وأنا أصدقك، وقد وعدتُك بالبراءة، وسأنفذ وعدي.

***

انطلق محمود مسرعًا لمقابلة سالم في محبسه، فقد كان يريد أن يتأكد من شيء في نفسه، وما إن جلس سالم أمامه سأله:

– هل كانت مديحة تمتلك مسدسًا؟

– نعم، مسدس ورثته عن أبيها.

– وأين كانت تحتفظ به؟

– اعتادت دائمًا أن تحتفظ به داخل خزانتها في المنزل، ولكن منذ أن أصبحت تعيش وحيدة في الڤيلا، رأت أن تحتفظ به في مكان سري تم تصميمه خصيصى داخل أحد الدواليب، حتى يكون الوصول له سهلًا إذا ما احتاجته؛ لأن الخزانة تستلزم وقتًا لفتحها ليس بالقصير.

– ومن كان يعرف بأمر هذا المخبأ؟

– فقط أنا ومهند، ولكن أنا لا أعلم مكانه، ولكن أعرف بأمره فقط.

– وهل يعرف مهند مكانه؟

– نعم، فقد كنتُ في زيارتهم ذات مرة، وكان المسدس بحوزته يقوم بتنظيفه، ثم ذهب وعاد ليخبر أمه أنه أعاده إلى مكانه بالمخبأ.

(٣٠)

في الطريق إلى مكتبه، اتصل محمود بأسامة، وطلب منه إحضار زوجة عمران من قريتها بالفيوم في الحال، ولم يخبره بأي شيء.

أغلق محمود مكتبه، وجلس أمام مفكرته، يستعيد ما بها من ملاحظات، حتى اكتملت الصورة التي تمت بها جريمة قتل عمران في ذهنه، وبعد أن فكَّر قليلًا، توجَّه إلى مكتب اللواء الشوربجي، وبقي معه خمس دقائق، عاد بعدها إلى مكتبه، وجلس على كرسيه وابتسامة النصر على وجهه، وقال لنفسه:

"حانت لحظة المواجهة".

***

كانت الساعة تشير إلى الرابعة عصرًا، عندما دخل أسامة بصحبة زوجة عمران، وكان الخوف يبدو عليها قليلًا، فنظر إليها محمود بحدة وقال:

– إن لم تستمعي لأوامري هذه المرة، سأحبسك بتهمة الاشتراك مع عمران في قتل السيدة مديحة.

انهارت مرزوقة وقالت:

– أنا تحت أمرك يا أفندم.

تحدث معها محمود لبضع دقائق، ثم أمرها بالانتظار في الخارج، وطلب من أسامة أن يأمر معاونيه، بالقبض على مهند، دون أن يبلغهم بسبب القبض.

لم تمضِ أكثر من ساعة، وكان مهند يجلس في مكتب محمود، وهو لا يفهم من الأمر شيئًا، فبادره محمود قائلًا:

– أنت متهم بقتل عمران البواب، فما أقوالك؟

ضحك مهند ساخرًا وقال:

– أقوالي! إن هذا كلام فارغ.

– وما أقوالك بخصوص اعتراف زوجة عمران أنك قتلت زوجها، وهددتها بقتل أبنائها، كما قمت بإعطائها مبلغ ١٠ آلاف جنيه؛ لتعود لبلدها وتنسى الأمر؟

استمر مهند على ضحكته الساخرة، وقال:

– وهذا أيضًا كلام فارغ، بالفعل أعطيتُها النقود، ولكن من قبيل الشفقة على أولادها بعد موت أبيهم.

استدعى محمود مرزوقة، فكررت اتهاماتها لمهند أمامه، ثم أمرها بالانصراف، ولكن مهندًا لم يهتز له جفن بل قال:

– إنها كاذبة، لقد حاولت ابتزازي بهذا الكلام من قبل.

– ولكنك لم تُبلغ الشرطة بذلك؟

– أشفقتُ عليها، وأفهمتُها أن هذا سيؤدي بها إلى السجن، فعادت إلى رشدها وسافرت، ونسيتُ أنا الموضوع.

– وهل من المعقول أن تعطيها نقودًا، وهي تحاول ابتزازك بالكذب؟

– أعطيتُها النقود يوم وفاة زوجها، وهي حاولت ابتزازي قبل سفرها لبلدها مباشرة، أي بعد نحو يومين.

– ولماذا تعود وتتهمك بهذا الكلام الآن؟

– يمكنك أن تسألها، فأنا لا أعرف السبب، وبنبرة تهكمية أردف:

– وربما أجبرها أحد أن تقول هذا الكلام.

فهم محمود من نظرة مهند وكلامه، أنه يقصده هو، ولكنه لم يبالِ وواصل يقول:

– وما أقوالك أن كلامك عن أحوالك المادية المستقرة في كندا، اتضح أن كله كذب، وأنك تعاني مشكلاتٍ تُهدد حياتك الاجتماعية هناك، بل ربما تُعرِّضك للسجن؟

ولأول مرة تختفي الابتسامة من وجه مهند، وبدا عليه قليل من الارتباك، وقال:

– وحتى لو ما تقوله صحيح، فما علاقته بقتل عمران؟

وعاد إلى تهكمه مرة أخرى قائلًا:

– هل تقصد أني قتلت عمران من أجل المال؟

لم يعبأ محمود بسخرية مهند، ولكنه رفع سماعة التليفون، وطلب أحد الأشخاص، وقال له كلمتين:

– "أرسله فورًا".

ثم تهللت أساريره، وبقي صامتًا ينظر إلى مهند، دون أن ينطق بحرف، وبدأ التوتر على مهند من الفرحة التي هلت على وجه محمود، وحاول جاهدًا أن يُداري توتره، حتى فُتح باب المكتب بعد ٣ دقائق، ودخل منه أحد الجنود؛ ليخبر محمود بوصول الشاهد، فأذن له بالدخول.

بمجرد أن رأى أسامة الشاهد، لمعت عيناه، وكاد أن يشهق، لكنه تمالك نفسه سريعًا، وجلس الشاهد على الكرسي المقابل لكرسي مهند، ودار بين محمود والشاهد الحوار التالي:

- ما اسمك؟ وكم عمرك؟

- على محمد الجندي، وعمري ٤٥ سنة.

- ماذا لديك من أقوال؟

- كنت أسير بسيارتي ذات يوم (ذكر تاريخ مقتل عمران)، في منطقة معزولة بالقاهرة الجديدة (وصف نفس مكان الجريمة)، وشاهدت رجلًا يجري مهرولًا، ويحمل في يده مسدسًا، وعلى وجه علامات الرعب، ومن يومها بقيتْ صورتُه في ذهني، وكان لديَّ يقين أني رأيته من قبل، ولكني لا أتذكره، وللحق ترددتُ في إبلاغ الشرطة؛ خوفًا من أن يُزجّ بي في هذا الأمر، وأنا دائمًا أميل للبُعد عن المشكلات.

وفي أحد الأيام، كنتُ أشاهد التليفزيون، وإذا بأحد البرامج، يستعرض جريمة قتل السيدة مديحة الشناوي، وكانت تربطني بها صلة عمل، فأنا أمتلك مصنعًا لملابس الأطفال، وهي تأتي وتشتري ملابس بأسعار مخفضة وتتبرع بها لملاجئ الأيتام، وما إن رأيت صورة السيدة مديحة، حتى تذكرت فورًا الرجل الذي رأيته يحمل المسدس، أنه ابنها، فقد رأيتُ صورته معها، عندما كانت تزورني قبل شهر من مقتلها، وبحركة مسرحية أدار وجهه، وأشار بإصبعه على مهند، قائلًا:

- هذا هو من رأيته.

في أقل من دقيقة، انصرف الشاهد بعد أن وقَّع على أقواله، وقام محمود ووقف أمام مهند، وقال:

– نسيتُ أن أخبرك، أن زكيًّا، اعترف هو الآخر بنفس رواية الشاهد، بعد أن اعترف بأنك لست ابنه، وأضيف إليك أننا عثرنا الآن على أداة الجريمة، وكانت تحمل بصماتك.

ثم أحنى رأسه، وقرب وجهه من وجه، ونظر في عينيه، وخاطبَه بصوت منخفض قليلًا، وقال:

صدقني لم تعد هناك فائدة من الإنكار.

انهار مهند، واعترف بقتل عمران، وأدلى باعترافات تفصيلية، ثم اصطحبه أمين شرطة والأغلال في يده إلى محبسه.

(٣١)

علت الضحكات داخل مكتب اللواء الشوربجي، والذي جلس على مكتبه وأمامه، محمود وأسامة والعقيد فتحي الذي كان يحكي ويقول:

– كنت سأموتُ رعبا عندما رآني أسامة، وكان على وشك أن يقوم ويقدم لي التحية، ولكني رمقته بنظرة أسكتته.

فلم يكن العقيد فتحي سوى الشاهد الذي ادعى أنه رأى مهندًا.

اللواء الشوربجي:

– أريدك أن تحكي لنا يا محمود، كيف توصلت إلى أن مهندًا هو قاتل عمران.

– في كل القضايا التي حققت فيها من قبل، تعودت أن أشك في الجميع، ولا أركز على مشتبه واحد، ومنهجي في البحث يعتمد على ما أجمعه من

ملاحظات تستوقفني في أثناء التحقيقات، وأقوم بتحليلها بدقة، حتى أصل منها إلى الحقيقة، إلى جانب التحليل النفسي لكل مشتبه فيه والذي أعتمد عليه كثيرًا.

لكن في قضية مقتل عمران، وجدتني أحيدُ قليلًا على ما تعودته، وأشك في اثنين فقط هما مهند وأبوه، بل أستطيع القول بأني كنت على يقين أن أحدهما هو القاتل.

أمَّا عن ملاحظاتي، فكانت الملاحظة الأولى التي انطلقت منها، هي إجابة مهند عن سؤالي له، إن كان يرى عمران يستحق القتل، فإذا به يقول بالحرف: "نعم، يستحق".

ومن خلال جمعي المعلومات عن شخصيته وانطباعي الخاص عنه، كان الإجماع على أنه مغرور وانفعالي، وهاتان الصفتان جعلتاه يصرح بحقيقة ما بداخله، دون أن يخالجه شك أني سأفكر أنه القاتل، بعد ذلك بدأت أُرتِّب المشاهد التي كوَّنت في النهاية الصورة الكاملة.

المشهد الأول، وكنت فيه على موعد معه، تقريبًا في نفس وقت ارتكاب الجريمة، قابلني على باب الڤيلا الخارجي، وبادرني قائلًا: إنه في انتظاري بالداخل منذ أكثر من ساعة، وكان يلهث وملابسه تغطيها الأتربة، وفوجئت أن باب الڤيلا الداخلي كان مغلقًا، وفتحه بالمفتاح، فعرفت أنه كاذب، ولم يكن داخل الڤيلا كما يدعي.

أمَّا المشهد الثاني، فكان عندما ذهبت مع أسامة لمقابلة زوجة عمران؛ لأبلغها بمقتل زوجها، ففوجئتُ منه أنه أبلغها، وبعد ذلك اصطحبنا لها، وبقي معنا حتى انصرفنا، وصرحت أمامه بأن صمت مرزوقة سببه تهديد الجاني لها.

وكنت دائمًا أتوقف أمام الملاحظات التي دوّنتها بخصوص مهند، وأردد كثيرًا: "هناك شيء خطأ"، ولم أعرف ما هو، حتى جاءت زوجتي وأنارت لي الطريق، فقد كنا نتحدث في أمر خاص، فذكرتني أنه من الصعب أن يخبر الإنسان أي شخص بوفاة عزيز لديه.

وهنا عرفت أن الشيء الخطأ، هو ذهاب مهند بنفسه لإبلاغ زوجة عمران بمقتل زوجها، فاستنتجت أنه فعل ذلك؛ لأنه أراد تهديدها، قبل وصولنا إليها.

ومكنني هذا الاستنتاج من تفسير أمر آخر كان يُحيرني، وهو إن كان القاتل قد اتصل بزوجة عمران ليهددها الساعة ١١ ليلًا، أي بعد أن تركناها، فمن هددها قبل أن نذهب لها؟

فاكتمل أمامي المشهد، ورأيتُ فيه مهندًا يبلغ مرزوقة بمقتل زوجها، ثم يهددها، بعد ذلك بقيَ معنا عندها حتى يتأكد أنها لم تتكلم، وبعد أن تركناها، وسمع مني أن صمتها بسبب أن الجاني اتصل وهددها، ولأنه ذكي، ففطن

أننا سنبحث في الأرقام التي اتصلت بتليفونها، وإن لم نجد، سيكون الجاني هددها وجهًا لوجه، ومن ثم قد تحوم الشبهات حوله، فقام بالاتصال بها في الساعة ١١ ليلًا.

وانتقلتُ بعد ذلك أبحث عن الدافع للجريمة، وكان مهند أخبرني سابقًا أن عمران يهدده بأن يخبر البوليس عن زيارته منذ شهرين لمصر، وطلب منه مبلغ ٢٠٠ ألف جنيه حتى يصمت، وعلى الرغم أن هذا السبب غير مقنع على الإطلاق، فإنني رأيت أنه أيًّا كان ما يخفيه مهند من أسباب للابتزاز، فإن قيمة المبلغ الذي طلبه عمران، يعتبر لا شيء بالنسبة للتركة التي سيرثها، ومن ثم فلا يمكن أن يكون قتله لعمران بسبب هذا المبلغ البسيط، ومن هنا ركزتُ كل تفكيري؛ لأعرف السِّرَّ الذي أراد عمران أن يبتز به مهندًا.

بدأتُ أُراجع كل ملاحظاتي عن مهند، فكانت هناك ملاحظة بخصوص محاولاته المستمرة أمامي لإظهار أن ظروفه المالية مستقرة في كندا، وأنه ليس بحاجة لتركة أمه، ثم تلتها ملاحظة تتعارض مع هذا الأمر، وهي شغفه على الاتصال بالمحامي بعد العزاء بيوم واحد ليسرع في إجراءات بيع التركة.

وكان هناك أحد احتمالين، الأول أنه كاذب وأموره المالية ليست مستقرة، والثاني أنه يريد المال ليعطيه شخصًا آخر، ولم يكن ليفعل ذلك إلّا مع أبيه.

تحريتُ عن أحوال زكي المالية، فعرفت أنه مُتعثِّر ماليًّا، وقاب قوسين أو أدنى من السجن، فخلصت أن مهندًا يريد المال لأبيه.

ولكن ملاحظة أخرى دوَّنتها، أشارت إلى أن مهندًا دائم المحاولات للتشكيك في أبيه أمامي، فعندما قابلته أول مرة، وسألته عن رد فعل أبيه لمقتل أمه، تعمَّد أن يُبدي ارتباكًا مفتعلًا، ويردّ بطريقة متلعثمة، حتى أشك في أبيه.

بالإضافة إلى اعترافه بأنه أبلغ أباه بابتزاز عمران له، وأنه طمأنه، ووعده بأنه سيتولى أمر عمران بنفسه، مما يعطي صورة أن الأب هو من قتله.

وأخيرًا، تذكرتُ انزعاجه على ضياع العقد وعلى الجواهر المقلدة، بصورة تضاعف آلاف المرات انزعاجه على أبيه والمُعرَّض لعقوبة الإعدام.

فخلصت من تلك الملاحظات، أنه لا يحب أباه، ومن ثم فلن يعطيه مالًا، وأنه يسعى للتركة لنفسه وليس لأحد آخر.

ولكن بعد إعادة تفكير في تصرفات مهند مع أبيه، اكتشفتُ أنه ليس من الصواب القول:

"مهند لا يحب أباه"، ولكن الأدق القول "مهند يكره أباه".

بدأتُ أبحث لماذا يكره مهند أباه، وكان أول ما تبادر لذهني، أنه يكرهه لأنه يعتقد أنه قتل أمه، حتى قمتُ بزيارة للمحامي الخاص بوالدة مهند.

أخبرني المحامي أن مديحة كانت تحب شخصًا قبل زواجها، ولكن أباها زوَّجها بزكي، وأنها لم تكن على وفاق معه قط، وأنه كان طامعًا في أموالها،

حتى أن المحامي خاف أن يقتلها طمعًا في الميراث، ونصحها بنقل أملاكها لابنها، لكنها لم تأخذ بنصيحته، مما يدل على أنها تعلم جيدًا شخصية زكي، وأنه لا يمكن أن يقتل، فأيقنت وقتها أن مهندًا أيضًا لا بد أنه يعرف شخصيته، ولن يشك أبدًا في أن يكون هو مَن قتل أمه.

لاحظتُ في أثناء مقابلتي مع المحامي أنه يُلمِّح ببعض العبارات لأمر ما، لكنه لا يريد التصريح به، فتوصلت إلى استنتاج بالرغم من صعوبة تخيله، إلّا أنه الوحيد الذي يفسر الأمور، وهو أن يكون مهندًا ليس ابن زكي.

ولحظتها أيقنتُ أن الوحيد الذي يمتلك الحقيقة كاملة بخصوص هذا الأمر، هو زكي.

وبالأمس كنتُ أزور المحامي مرة ثانية، وفوجئت منه أن مهند ينوي السفر خلال أسبوع، ويريد بيع أصول التركة بأي سعر.

طلبت منه أن يعرض عليه أن يسافر، وعندما يرتب له مشتريًا، يعود لينهي عملية البيع، وبالفعل أبلغه، لكنه رفض بشدة.

ففهمتُ أنه يخطط ألّا يعود لمصر ثانية، قررت لحظتها أن أتحرك بأقصى سرعة، قبل أن يفلت من يدي، فكل ما لديَّ شكوك واستنتاجات دون أدلة دامغة، وكنت على يقين أن لدى زكي الكثير، ولكن كيف أدفعه للكلام.

ذهبتُ له وأخبرته أن مهندًا باع كل أملاكه، وحوَّل النقود للخارج، وسيسافر بعد يوم واحد، وكنت اتفقتُ مع خالد المحامي على أن يؤكد كلامي لزكي، وبالفعل اتصلت بالمحامي، وتكلم معه زكي، فتأكد من صدق أقوالي.

عندها انهار، وخرج عن صمته، وحكى كل شيء، وأخبرني أن مهندًا ليس ابنه، وعرفت أيضًا أن مهندًا عرف بتلك الحقيقة من أمه في زيارته الأخيرة لمصر، وهنا عرفت بماذا هدد عمران مهندًا.

سكت محمود لحظات شرب بعض الماء وأردف:

- أخبرتني زوجة عمران، أنه عاد يوم الجمعة ليلًا بمفرده، من قريته بالفيوم، بعد أن أمضى أسبوع الإجازة الذي منحته إياهم مديحة، وكان من المفترض عودته صباح السبت، ولكنه سافر مع صديق له لديه سيارة نصف نقل، ولحقت به أسرته في اليوم التالي.

وأغلب الظن أن عمران وجد باب الجراج أو باب الڤيلا الخارجي مفتوحًا فدخل منه، وإذا به يسمع شجارًا بين مهند وأمه، عرف فيه أن مهندًا ليس ابن زكي، وبالطبع كان على مهند أن يقتل عمران ليدفن معه هذا السِّر.

لم يبقَ أمامي إلّا سلاح الجريمة، وعرفت من زكي أن مديحة كانت تمتلك مسدسًا، تحتفظ به في خزينة المنزل، أيام كانت زوجته، ولكن بعد مقتلها، لم

تجد الشرطة أي مسدس في القيلا، فذهبت لسالم في محبسه، وسألته، فأخبرني أنها تخفيه في مخبأ سري بالدولاب، وأن مهندًا يعرف بمكانه.

هنا اكتملت أمامي القضية، وحضرت لسيادتك، وطلبت منك أن يقوم العقيد فتحي بدور الشاهد.

ثم ضحك وأردف:

– حتى نستفيد من التسليط الإعلامي على القضية، والذي لم نستفد منه للآن.

هنا سأله أسامة:

– ولكني حتى الآن لا أفهم يا أفندم، لماذا قبضت على زكي، ولم تقبض على مهند في البداية؟

– فضّلت أن يوجه الاتهام للأب، لأني كنت متأكدًا أن هناك علاقة تربط الاثنين في الجريمة، ولكن لم تكن لديَّ أدلة كافية ضد مهند، ووضعت نصب عيني أنه يحمل الجنسية الكندية، فإن لم تكن هناك أدلة دامغة، سيخرج من الحبس الاحتياطي، وبعدها يغادر البلد فورًا.

– ولكن يا أفندم، من أين لك بالمعلومات، التي واجهته بها، عن أحواله المالية المتعثرة في كندا؟

– كلها استنتاجات، بنيتُها على أنه لا يُقدّر قيمة المال، إلى جانب لهفته على التركة بهذا الشكل، ولحسن الحظ أنها كانت سليمة.

– ومَن يا أفندم الذي عثر على المسدس كما أبلغته؟ وهل كانت فعلًا بصماته على المسدس؟

– لم يعثر أحد عليه، ولكني على يقين أن المسدس أخفاه إمَّا في حديقة القيلا، أو في نفس المخبأ بالدولاب، أمَّا بخصوص البصمات، فلا أعلم إن كنا سنجدها أم لا، ولكن كان الأمر كله خدعة؛ حتى ينهار ويعترف، والحمد لله نجحت.

قام الجميع وتبادلوا التهاني، وهنؤوا محمودًا على ذكائه في الإيقاع بالمجرم، وتمنى له اللواء الشوربجي الانتهاء من قضية مديحة.

(٣٢)

مرت الأيام ولم يظهر أي جديد في قضية مديحة، سالم بقيَ في محبسه على ذمة التحقيقات، أمَّا زكي فقد تمت تبرئته من تهمة قتل عمران، ولكنه ظَلَّ محبوسًا على ذمة التحقيق هو الآخر؛ نتيجة اعترافاته التي أدلى بها لمحمود بوجوده في ڤيلا مديحة وقت قتلها، وعاتب محمود كثيرًا على ذلك؛ لأنه لم يتصور أن يَشيَ محمود به، فلم يكن أحد يعرف بهذه الحقيقة سوى عمران الذي مات، ولكن محمودًا أكد له، أن بقاءه في السجن، سيعجل بالقبض على قاتل مديحة.

في صباح أحد الأيام، وكان قد مضى نحو عشرة أيام منذ أن تم حل قضية مقتل عمران، فوجئ العميد محمود بأسامة يتصل به، ويبدو على صوته الانفعال، ويقول:

– الڤيديو الثاني يا أفندم، وصلني منذ لحظات.

– ماذا تقول؟!

– فيديو يُظهر قاتل مديحة بوضوح هذه المرة.

– مَن هو؟

– نادية صديقتها.

– أحضِرْهُ فورًا.

فكر محمود قليلًا، وفجأة كأن ثعبانًا لدغه، أمسك بتليفونه، واتصل بنادية، فلمَّا ردّت، بادرها قائلًا:

– الحمد لله أنك بخير، اسمعي لي جيدًا، هل زوجك معك؟

ارتعدت نادية من طريقة محمود، وأجابت بصوت يملؤه الخوف:

– نعم.

تكلم محمود بصوت حاسم:

– أغلقي على نفسك باب القيلا جيدًا، وامنعي أي أحد من الخدم أن يفتح لأي مخلوق، وسأرسل سيارة نجدة لإحضارك أنت وزوجك عندي فورًا.

– أرجوك أن تشرح لي الأمر، أنا لا أفهم شيئًا.

– ليس هناك وقت لأضيعه في الشرح، حياتك أنت وزوجك في خطر شديد، نفذي ما أقوله لكِ، ثم أغلق الخط دون أن ينتظر منها ردًّا، وأصدر أوامره فورًا لشرطة النجدة بالتوجه لڤيلا نادية؛ لإحضارها هي وزوجها.

جلس على كرسيه، وهمس لنفسه: "أخطأ القاتل مرة، وأتمنى أن يخطئ للمرة الثانية".

***

لم يهدأ محمود إلّا بعد أن تلقى اتصالًا من ضابط شرطة النجدة، يفيده بأنه في الطريق إليه بصحبة نادية وزوجها.

فوجئ أسامة بأنه يدخل على محمود في نفس اللحظة التي وصلت فيها نادية بصحبة زوجها، وعلى وجهيهما يبدو شبح الموت من الخوف الذي عاشاه منذ اتصال محمود بنادية.

وقف أسامة وعلى وجهه أمارات الذهول الشديد، وهو يرى محمودًا يطلب من نادية وزوجها أن يجلسا ليستريحا، ويطلب لهما شراب ليمون مثلجًا؛ ليساعدهما على الهدوء، ثم تركهما في مكتبه، واصطحب أسامة لمكتب مجاور؛ حتى يتمكن من مشاهدة التسجيل، وحاول أسامة أن يفهم منه شيئًا، لكنه كان شاردًا، ولم يجبه على أي سؤال.

كان التسجيل مدته لا تزيد عن ٢٥ ثانية، تظهر فيه نادية تحمل خنجرًا في يدها، ومديحة ملقاة على الأرض، ونادية تدور حولها في تحرك عشوائي، وعلى وجهها ذُعر شديد، ثم تستدير فجأة، وتهرول إلى الخارج.

أعاده محمود أكثر من عشر مرات، وسأل أسامة عن كيفية وصول التسجيل له، فأخبره أنه وصل كالمرة السابقة تمامًا، عن طريق امرأة تقود سيارة، فيما عدا أن الجندي هذه المرة مختلف.

وقبل أن يغادرا مكانهما سأل أسامة محمود:

– أرجوك يا أفندم، فسِّر لي: كيف جاءت نادية وزوجها لمكتبك، وسر معاملتك العطوف لهما، على الرغم أني أبلغتك أن نادية تبدو القاتلة؟

– عندما أبلغتني عن التسجيل الذي يدين نادية، عرفت أن الجاني يحاول إدانتها كما حاول إدانة سالم من قبل، وفي المرة الأولى رأيت أن الجاني ارتكب خطأ تسبب في نجاة سالم، فلو كان قتله أولًا، ثم أرسل التسجيل، لنجح في إدانته؛ فلن تكون له فرصة لأن يحكي ويدافع عن نفسه.

وخفت أن يتدارك خطأه هذه المرة ويقتل نادية؛ فأرسلت على الفور سيارة نجدة، وأحضرتُها هنا، لأني على يقين من براءتها.

***

عاد محمود ومعه أسامة إلى مكتبه، وكان الهدوء يبدو على نادية وزوجها إلى حدٍّ ما، فبدأ محمود كلامه ووجَّهه إلى نادية قائلًا:

– يؤسفني أن أخبرك أنكِ متهمة بجريمة قتل السيدة مديحة الشناوي، فما أقوالك؟

لم تنطق نادية، ولكن زوجها صرخ قائلًا:

– زوجتي ليس لها ذنب، أنا المسؤول عن كل ما جرى، سأعترف بكل شيء.

وبهدوء شديد ردَّ محمود:

– تكلم يا أستاذ عمر.

– ولكن أطلب ألّا تحضر زوجتي التحقيق معي.

(٣٣)

طلب محمود من أحد الجنود اصطحاب نادية إلى غرفة مجاورة، وبعدها بدأ عمر كلامه وقال:

– بدأت الحكاية في شهر يناير الماضي، يوم عيد ميلاد زوجتي، حضرت مديحة إلى ڤيلتنا، وتعرفتُ إليها، وطلبت مني زوجتي أن أقوم بتوصيلها إلى منزلها؛ لأن يومها لم يكن معها سيارة، ولم ترغب زوجتي في ترك الحفلة وما زال بعض المدعوين موجودين.

وأنا أعترف لسيادتك أني ضعيف أمام النساء، بل تسبب هذا السلوك في أن تقطع زوجتي علاقتها بكل صديقاتها، ولكن منذ نحو أربع سنوات، تخلصت من هذه العادة السيئة تمامًا، ووعدتُ زوجتي بأنها سترى شخصًا جديدًا، وبالفعل نفذتُ وعدي، حتى أن زوجتي بدأت تكوِّن بعض الصداقات من جديد، وكانت مديحة واحدة منهم، وكأن زوجتي أرادت أن

تختبرني بطلبها لي بتوصيل مديحة، ولكن للأسف رسبت في الاختبار، ولكني لا أعفي مديحة من المسؤولية.

عندما ركبت السيارة معي، بدأت أوجه لها بعض كلمات المديح، واستقبلته بكثير من الإعجاب، وتدرج المديح لغزل، وأيضًا لم تعترض، وكأنها تعطيني ضوءًا أخضر لأستمر، وقبل أن تدخل ڤيلتها، كنت قد أخذت منها رقم تليفونها.

في نفس الليلة وفي وقت متأخر، اتصلت بها، وتجاوبت معي إلى حد ما، ولكنها أبدت تخوفها أن تكتشف نادية الأمر، ولكني طمأنتُها، فطلبت مني ألّا تتعدى علاقتنا علاقة الأصدقاء، ووعدتها بهذا.

ولكن مع مرور الأيام، تعلقت بها بشكل جنوني، وكنت أتصل بها بصورة يومية، بل وأحيانًا أكثر من مرة في اليوم، ولكن حدث يوم عيد الحب، أن طلبت منها أن نمضي هذا اليوم معًا، لكني فوجئت منها بتغير حادٍّ، بل طلبت مني ضرورة إنهاء صداقتنا، وفشلت في أن أعرف السبب.

وبالفعل مضى أسبوع دون أن يتم بيننا أي اتصال، ولكن كاد عقلي أن يجن، فقد ارتبطتُ بها بجنون، فعاودت الاتصال بها، فإذا بها تكرر ما قالته لي من قبل، وظللت أتصل بها يوميًّا، وكانت في مرات عديدة لا تردّ، ومرات تردّ بصورة مقتضبة.

بدأت أرسل لها رسائل بصفة يومية، أستجديها أن تُعيد علاقتنا لما كانت عليه، ولكنها لم تكن تردّ قط على الرسائل، على الرغم أنها كانت تقرؤها جميعًا.

وكأن مديحة أصبحت تسري في دمي، فلم أعد أستطيع العيش بدونها، وفي إحدى المرات التي ردَّت فيها على اتصالاتي التي لم تنقطع، طلبتُ منها لأول مرة الزواج، ففوجئتُ بها تخبرني أنها ستتزوج برجل آخر، فقاطعه محمود قائلًا:

– متى كان هذا؟

– قبل وفاتها بيومين.

وعاد ليكمل فقال:

– ظننت أنها كانت تخدعني حتى أُبعد عنها، ولسوء حظي، أرسلت لها رسالة قبل مقتلها بيوم واحد، ونسيتُ أن أمحوها، وقرأتها زوجتي ولكنها لم تخبرني.

اتصلت بها صباح يوم مقتلها؛ لإقناعها بالزواج بي، ولكنها ردّت عليَّ بصورة ساخرة، وأخبرتني أنها ستتزوج اليوم، فجُن جنوني، وهددتها بأني سأذهب لها وأمنعها بالقوة.

وذهبتُ إلى ڤيلتها في حالة شديدة من التوتر والانفعال، ووصلت هناك في حدود الساعة الخامسة، فوجدتُ باب الڤيلا مفتوحًا، دخلتُ، فوجدتها ملقاة على الأرض، وخنجر مغروس في رقبتها من الخلف، وبدون أن أشعر،

مددت يدي وسحبتُ الخنجر، وأنا في حالة من الذهول لا أستطيع وصفها لك.

وإذا بزوجتي أجدها تقف خلفي مباشرة، وتصرخ، وتسألني: لماذا قتلتها؟ فأقسمت لها أني لم أفعل، وكنت أرتعد، ولأن نادية تتمتع بشخصية أقوى مني، وجدتها تأخذ مني الخنجر، وتأمرني بحسم أن أتوجه للمنزل فورًا، وهي ستتولى الأمر، وبالفعل نفذتُ ما أمرتني به، وجريتُ هربًا، ثم عادت هي إلى المنزل بعد ذلك، وتخلصت من الخنجر؛ لأنها كانت تعتقد أني القاتل، وتريد أن تحميني، وأقسم لك أن ما قلته هو الحقيقة كاملة.

صمت محمود طويلًا، ثم طلب من عمر البقاء في المكتب المجاور، وأرسل في طلب نادية، واستمع إلى أقوالها، والتي جاءت مطابقة تمامًا لما قاله زوجها، إلّا أنها أضافت، أنها شكّت أن زوجها هو العريس الذي سيتزوج مديحة، بعد أن رفضت أن تخبرها بأي شيء عنه، فبقيت تُراقبه هذا اليوم دون أن يشعر بها، وأقسمت في النهاية أن عمر لا يمكن أن يكون القاتل؛ لأنه لا يقوى على قتل ذبابة، ثم انهارت في البكاء.

أمر محمود بحبس الاثنين، وعرضهما على النيابة، بتهمة قتل مديحة الشناوي، وتَرَكَ مكتبه، وذهب منزله في حالة من الشرود.

(٣٤)

جلس محمود في غرفة مكتبه بالمنزل، واضعا رأسه بين كفيه، وأمامه مفكرته وكل ما يتعلق بالقضية، وكان أشد ما يزعجه، أنه لا يجد حتى الآن تفسيرًا للصوت الذي كاد يصمُّ أذنه، ويردد دائمًا: "الفستان الأزرق وصورة مديحة"، ثم أخرج رسالة مديحة، وقرأها بعد توقفه عن قراءتها منذ فترة، وأخيرًا قرأ تقرير أسامة، وبعد ذلك ترك مكتبه، ودخل غرفة نومه؛ ليستريح بعد أن تملَّك اليأس منه.

لاحظت ناهد أن زوجها في حالة غير جيدة، فأرادت أن تخرجه من هذه الحالة، فقالت:

- ألن تأتي معي خطوبة ياسمين ابنة أختي الخميس القادم؟

ردَّ محمود باقتضاب:

- لا أدري.

– أنا أعلم أنك مشغول جدًّا، ولكن أريد أن آخذ رأيك في شيء.

– ما هو؟

– أي فستان تفضل أن ألبسه لهذه المناسبة؟

ردَّ محمود بتلقائية:

– الفستان الأحمر.

فجأة، هبَّ محمود من الفراش جالسًا، وصرخ قائلًا: غير معقول.. غير معقول.. شيء لا يُصدق.

حاولت زوجته أن تهدئه، لكنه ترك الفراش، وهرول إلى غرفة مكتبه، وأخرج أوراقه، ونظر فيها، ثم خبط بيده على جبينه، وقال:

– "فهمت الآن سِرَّ الفستان الأزرق، وفهمتُ لماذا وقفتُ طويلًا أمام صورة مديحة.. بل فهمتُ كل شيء".

***

كانت الساعة تقترب من الثامنة ليلًا، ومحمود داخل مكتبه بالمديرية، يقلب على عجل بعض الأوراق داخل ملف قضية مديحة، ثم هزَّ رأسه وقال:

- "أوشكت الصورة على الاكتمال".

بعدها أخرج رقم تليفون هنية الشغالة من بين الأوراق، وسألها سؤالًا واحدًا، ثم أغلق التليفون وقال:

- "الآن اكتملت الصورة".

توجه إلى مكتب اللواء الشوربجي، وبعد أن جلس، تكلم بصوت يكسوه الحزن، وقال:

- لأول مرة يا أفندم، أحزن بشدة عندما أتوصل للجاني في جريمة قتل.

- لا أفهم يا محمود، ماذا تقصد؟

- يؤسفني أن أبلغك يا أفندم، أن قاتل مديحة هو.. الرائد أسامة.

(٣٥)

- "لم أشك فيه يومًا".

هكذا بدأ محمود كلامه للواء الشوربجي، والذي أصابته حالة من الذهول بعد سماعه الخبر، وقد طلب من محمود أن يحكي له بالتفصيل، كيف وصل إلى تلك النتيجة، ثم بدأ محمود في الحكي وقال:

- بدأ الأمر باستلامي رسالة، وصلتني بالبريد موقعة باسم مديحة الشناوي، وتخبرني فيها أنها تخطط لجريمة كاملة، وستكون هي القتيلة، وتتحداني أن أصل إلى القاتل، قرأتها ولم أهتم ولكن شيئًا ما لا أعلمه جعلني أحتفظ بها، وفي نفس اليوم، استدعيتني سيادتُك، وكلَّفتني بتولي قضية قتل مديحة الشناوي.

في كل يوم، كنت أقرأ الرسالة مرات ومرات، أحاول أن أجد إجابة لأسئلة في ذهني، كلها تنصبُّ على القتيلة ورسالتها.

حتى جاء أحد الأيام ولم أقرأ فيه تلك الرسالة، وكانت النتيجة أني لم أبقَ طويلًا في غرفة مكتبي بالمنزل، بل أنهيتُ عملي سريعًا، يومها فهمتُ، أن المغزى من الرسالة هو أن الجاني أراد تشتيتي وإضاعة وقتي، وأن القتيلة ليس لها شأن بتلك الرسالة.

سكت للحظات ثم أردف، ذات يوم قمت بالمعاينة الثانية للڤيلا وكانت للطابق الثاني فقط، ويومها وقفتُ طويلًا أمام صورة القتيلة، ولم أفهم السبب، بل بقيت بصفة يومية أسأل نفسي عن السبب، ولم أعرف.

بعدها أحضر لي أسامة تقريرًا كنتُ طلبتُه منه بخصوص القتيلة، وكتب فيه بالحرف "إن القتيلة وقت الوفاة وُجدت مرتديةً الفستان الأزرق"، ومنذ أن قرأت التقرير، وأصبحت أيضًا كلمة "الفستان الأزرق" ترنُّ في عقلي ولا أفهم سببها.

حتى عصر اليوم، عندما كانت زوجتي، تسألني عن رأيي فيما ترتديه لمناسبة ستحضرها قريبًا، وحتى أتخلص منها، وجدتني أجاوب بسرعة بالفستان الذي أعرفه لديها جيدًا، وقلت: "الفستان الأحمر".

لحظتها، بدأت الأمور تنجلي أمامي شيئًا فشيئًا، فهمتُ ساعتها ما سرُّ الفستان الأزرق، فقد كان لزامًا على أسامة أن يكتب في التقرير "فستانًا أزرق" وليس " الفستان الأزرق"، فهو بذلك كتب عن شيء مألوف لديه.

وإذا بتفسير وقوفي طويلًا أمام صورة القتيلة، يقفز إلى عقلي، وكأنه يقول "أنا أيضًا أرتبط بأسامة".

فأنا عندما قمتُ بالمعاينة أول مرة، كان معي أسامة، وفي الطريق، علقتُ على هذه الصورة، فأجاب بتلقائية أنه يؤيدني عما أقوله بخصوص تلك الصورة، وذكر أنها موجودة في "غرفة النوم"، ولكني في المعاينة الثانية، وجدتُ الصورة معلقة في غرفة المكتب، وكان هذا سبب استغرابي.

واتصلت منذ قليل بهنية الشغالة، وعرفت منها أن الصورة بالفعل كانت موضوعة في غرفة النوم، ولكن القتيلة نقلتها قبل وفاتها بشهر تقريبًا إلى غرفة المكتب، فمعنى هذا أيضًا أن أسامة محفور في ذاكرته مكان الصورة القديم.

ولكن كان الدليل الذي لم يدع لديَّ مجالًا للشكِّ، هو أنه ذكر في تقريره، أن القتيلة وقت قتلها، كانت ترتدي قرطًا ماسيًّا، على الرغم أن الصورة التي التُقطت للقتيلة، لم تكن ترتدي فيها أي قرط، كما أن المحضر الذي تم عند معاينة الجثة لم يُذكر فيه أي شيء عن قرط ماسي.

ولكن الحقيقة أن القتيلة كانت ترتديه بالفعل ولكن أسامة سرقه، ونسي وكتبه في تقريره.

وقتها تذكرتُ التقرير الذي أرسله أسامة، وكيف أني امتعضتُ بعد قراءته؛ لأنه لم يكتب انطباعاته الخاصة عن القتيلة كما طلبتُ منه، فقد أخبرني

أنه قابَلَها من قبل، إلى جانب خلوه من أي معلومة إضافية من الممكن أن أستفيد منها، وبالرغم من هذا، اتصلتُ به، ومدحتُ له تقريره، لأني وقتها تصوَّرت أن حالته النفسية سيئة بسبب فك ارتباطه بخطيبته، فأردت أن أدعمه نفسيًّا، وبالرغم من ذلك لا أستطيع إلّا أن أعترف وأقول، إن هذا التقرير هو الذي أوقعَ به.

- وهل تيقَّنتَ من دافع القتل؟

- سرقة العقد الذي يزيد ثمنه عن ١٠ ملايين جنيه.

مرَّ على الاثنين صمتٌ طويل قبل أن يقطعه اللواء، ويقول:

- لكن كل ما قلته، يستطيع أن ينكره أسامة بمنتهى السهولة، فكيف أواجهه بأنه متهم بجريمة قتل؛ لأنه كتب "الفستان الأزرق"، وكان لا بد أن يكتب "فستانًا أزرق".

وذكره للصورة أنها في غرفة النوم، سيقول: "أنا لم أقل"، أو سيقول: "قلتها سهوًا"، وكلتا الإجابتين مقبولتان جدًّا.

وحتى بالنسبة للقرط الماسي الذي ذكره في تقريره ولم تكن ترتديه القتيلة، سيقول إنه كتبه بالخطأ، وأن التقرير مكتوب بصفة ودية وليس تقريرًا رسميًّا يُسأل عنه، فباللهِ عليكَ، قل لي: كيف سنواجهه؟!

– الأمر أسهل مما تصور يا أفندم، فأنا بعد أن اتضحت الأمور أمامي، اكتشفتُ أن رسالة مديحة التي أرسلها لي أسامة، لم يكن غرضها الوحيد تشتيت فكري فقط، وإنما كانت تحمل بداخلها تحدٍّ من أسامة لي، بل أستطيع أن أجزم، أنه مريض بغرور قاتل، فهو يعتقد أنه الأذكى، وأراد أن يثبت لي ذلك، والمغرور عادة يقع في أخطاء تافهة؛ لتصوره بأن أحدًا لن يكشف أمره، وأنا على يقين أن العقد ستجدونه في أحد مكانين لا ثالث لهما، إمَّا في منزله، أو في مكتبه بالقسم.

في أقل من ساعة، تم القبض على أسامة، وتم العثور على العقد في منزله، وقال في أثناء التحقيق معه كلمتين اثنتين ولم يزد عليهما بحرف:

"أنا القاتل".

الخاتمة

مرَّ أسبوع على حل قضية مقتل مديحة، وكان محمود في إحدى قرى الساحل الشمالي، يجلس على الشاطئ، مستلقيًا على أحد كراسي البحر، وإلى جواره زوجته ناهد، وبدأ يقرأ في رسالة كتبها له أسامة، قبل أن يجدوه منتحرًا داخل زنزانته، وكتب فيها:

"عزيزي العميد محمود.. منذ القبض عليَّ وأنا ملتزم الصمت، ولم أتكلم مع مخلوق، وأنا متأكد أنك تتفهم موقفي، فالأذكياء أمثالنا من الصعب عليهم التحاور مع الأغبياء، وبالرغم من أني لم أعرف للآن كيف أوقعت بي، ولكن أعترف بذكائك، لهذا كنت الوحيد الذي يستحق أن أحكي له؛ لأنك الوحيد الذي سيفهم.

نشأتُ في أسرة متوسطة الحال، وتخرجتُ في الكلية، والتحقتُ بإدارة المباحث؛ لأني كنتُ متفوقًا طوال دراستي، ومنذ أن بدأتُ الحياة العملية، تعرفت إلى الكثيرين ممن يطلق عليهم رجال أعمال، ووجدت أغلبهم من الأغبياء، وتولدت لديَّ دهشة كانت لا تُفارقني بسبب أن معظم الأثرياء أغبياء، وأنا بما لديَّ من عبقرية، لا أمتلك ثمن شقة فاخرة بل حتى شقة عادية، المتخلفون يسمون دهشتي حقدًا، ولكن أنا متأكد أنك تفهمني جيدًا.

حتى تبدلت حياتي وانقلبت رأسًا على عقب قبل بداية العام الجديد بنحو أسبوع، عندما قامت مديحة بزيارة القسم لدينا؛ لتتبرع ببعض الهدايا والأموال، يومها طلبت مني رقم تليفوني، ووجدتها تتصل بي في اليوم التالي، تسأل عن بعض الأمور، ولكني لاحظتُ أنها مبررات للتحدث معي، فتجاوبت معها، وتطورت علاقتنا، حتى أصبحت الاتصالات بيننا بصورة يومية، وأبهرني ثراؤها الشديد، وأيضًا سذاجتها وغباؤها الأشد.

في البداية لم أكن أعرف ماذا أريد منها، كانت تجربة جديدة أخوضها لأول مرة، ولم أحسب لها حسابًا، حتى كان عيد الحب في منتصف فبراير، ووقتها خرجت معها لأول مرة في مكان بالطريق الصحراوي؛ حتى لا يرانا أحد، وقد حافظت طوال علاقتي بها على ألّا يعرف مخلوق بتلك العلاقة.

يومها تصارحنا بالحب، وكادت أن تطير فرحًا، وأفهمتُها أني مرتبط بابنة عمي، ويلزمني وقت؛ لأتخلص منها؛ لأن أبي من الممكن أن يموت لو عرف أني لن أتزوجها، وبالتأكيد أنت تفهم أني كنت أكذب عليها في كل ما قلت، ولكنها صدقت، واشترطتُ عليها أن تبقى علاقتي بها سرية حتى على أقرب المقربين.

وبدأت أرى أنها من الممكن أن تكون لي البقرة التي تدرُّ لي ذهبًا، وبالفعل لم يمضِ على علاقتنا شهران، إلّا وكنت قد حكيتُ لها عن قريب لي يحتاج

إلى تبرع ماليٍّ، فأحضرتْ لي مبلغ ١٠٠ ألف جنيه، وطبعًا لم أصدق نفسي أني حصلتُ منها على هذا المبلغ بهذه السهولة.

استمرَّ الحال بيننا وهي كل فترة تسألني متى سأُنهي خطوبتي، وأنا أتهرب من الجواب، وقبل أن ينتهي شهر أبريل، كنتُ قد تحصَّلت منها على نحو ٣٠٠ ألف جنيه في صورة تبرعات لأشخاص وهميين، وفكرتُ بيني وبين نفسي أن أكتفي بهذا المبلغ؛ لأن إلحاحها بخصوص الزواج أصبح بصورة متكررة جدًّا، ولم أعد أجد مبررات لها، وبدأت أرتب للتخلص منها.

كنا في أول أيام شهر مايو، وفوجئت بها تخبرني، أن الڤيلا خالية لمدة أسبوع، وهي تريدني أن أزورها حتى أرى عُشَّ الزوجية الذي سيجمعنا، ووعدتها بالذهاب ولم أفعل، ولكنها اتصلت بي في اليوم التالي، وأبلغتني أن ابنها سيصل بعد يومين، وألحَّت عليَّ في الذهاب قبل وصوله، وقررت أن أقابلها وأصارحها باستحالة زواجي بها، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان.

ذهبتُ إليها، وقبل أن تعطيني أي فرصة للحديث، أخذتني من يدي، واصطحبتني في جولة داخل الڤيلا، وكانت تحكي وهي في حالة من النشوة، عن تخطيطها ليوم زفافنا، وأنها تنتظره بفارغ الصبر؛ لترتدي عقدًا لديها، يزيد ثمنه عن ١٠ ملايين جنيه، وأنها ارتدته مرات معدودة طوال حياتها، لكنها لم تسعد بارتدائه مثلما ستسعد هذه المرة، وصُعقت عند سماعي بثمنه، وسألتها عنه، فعرفتني أنها تحتفظ بالعقد في خزينة بالبنك.

للحق، شعرت بدوار في رأسي، ووجدت أن الفرصة الآن بين يدي، ورأيتُ أنها من المرات القليلة التي ترغب فيها الثروة أن تذهب للأذكياء، وبدلًا من أن أبدأ في خطة التخلص منها، وجدتني أصارحها بأني أنتظر هذا اليوم على أحرّ من الجمر.

في خلال يومين، كنتُ قد عقدتُ العزم على التخطيط لسرقة العقد، ولكن حتى تكون الجريمة كاملة، قررت ألّا أتعجَّل فيها، وأن تُدرس كل خطوة بمهل، فأبلغتُها بأني سأتزوجها في أول شهر يوليو، وأخبرتُها أن الشرط الوحيد لزواجنا هو السرية الكاملة، حتى آخر لحظة، خوفًا على حياة أبي، وأن تتبع كل ما أقوله لها من ترتيبات، ودون تفكير وافقت على الفور.

بعد دراسةٍ متأنية، توصلتُ أن الخطة المُثلى لسرقة العقد لا يمكن تنفيذها إلّا بقتلها، وبدأت أضع خطتي على هذا الأساس.

بدأتُ أعرفُ منها كل تفاصيل حياتها، وكل شيءٍ عن المقربين لها، فوجدتُ أن أفضل شخصية لأداء دور البطولة في خطتي هو سالم، وسأحكي لك لاحقًا لماذا اخترتُه.

بدأتُ في تنفيذ الخطة، وأفهمتُها أننا سنكتفي بعقد قران في الڤيلا، ومن بعده نطير خارج مصر أسبوعًا؛ لنحتفل بزواجنا، وأقنعتُها أن ترتدي ما كانت تنوي أن ترتديه لو أقمنا حفلًا داخل الڤيلا، كما كانت تنوي أن تفعل،

بل اخترتُ لها أن ترتدى الفستان الأزرق؛ لأنها أبلغتني أن العقد مُطعَّم بفصوص زرقاء.

اتفقتُ معها على أن أُحضر المأذون، وأحد أصدقائي ليكون شاهدًا على العقد، ويكون سالم ابن عمهَا الشاهد الثاني، ولكني أكدتُ لها ألّا تخبره بأي شيء حتى أقول لها.

بعد أن اكتملت الخطة في ذهني، حددت موعدها يوم السبت وهو يوم إجازتي من العمل، وأخبرتها أني أفهمتُ أسرتي بقيامي بمأمورية لمدة أسبوع.

ذهبتُ معها إلى ڤيلتها يوم الجمعة ليلًا ومعي حقيبة سفر، وتركت سيارتها بالخارج؛ حتى لا يراني البواب، ثم دخلت، وفتحتُ باب الڤيلا الداخلي، ومرت من الداخل إلى غرفة البواب؛ حتى تدير معه حديثًا لتشغله؛ لأستطيع أن أتسلل إلى الداخل دون أن يراني.

في الساعة العاشرة ليلًا، طلبتُ منها أن تتصل بسالم، وتكلمه بلهجة ناعمة؛ حتى نضحك عليه قليلًا، وتُخبره أن يأتي في اليوم التالي الساعة الرابعة عصرًا مرتديًا بدلة رسمية، ونفذتْ ما قلتُه لها، وكانت تضحك وتقول، إن بسبب لهجتها التي تكلمت بها معه، سيتأكد أنه العريس، وشاركتُها الضحك، وهي لا تعلم أن هذا ما كنتُ أرمي إليه تمامًا.

طلبتُ منها التخلص من البواب والشغالة، وكانت تنفذ كل ما أقوله بالحرف، فيما عدا إبلاغها لنادية وعمر وزكي بخبر الزواج، وهذا الأمر

اكتشفتُه فقط في أثناء التحقيقات، وهنا أنصحك يا محمود بك، ألّا تأتمن أبدًا امرأة على سِرٍّ.

حان وقت أن أحكي لك سبب اختياري لسالم، وكيف كان هو بطل خُطتي، فقد حكتْ لي مديحة أنه عاش بدون زواج بسبب عشقه لها، وأنه غبي ولا يفهم أنها تعرف ذلك جيدًا، ولكنها تستخدمه كثيرًا؛ لأمانته وأخلاقه، فبنيتُ خُطتي على أن أضعه في حالة نفسية من الممكن أن يرتكب فيها جريمة.

وضعتُ ثلاثة احتمالات لن يخرج رد فعل سالم عن أحدها، عند معرفته بأنه جاء ليكون شاهدًا على زواج محبوبته، وخاصة بعد مكالمتها له ليلًا بطريقة توحي بأنها تحبه.

الاحتمال الأول أن يثور عليها ويقتلها، والثاني، أن يثور عليها ويتركها ويخرج، والأخير، وكان في تقديري احتمالًا ضعيفًا جدًّا، أن يرضى بالأمر، ويبقى ليكون شاهدًا على العقد.

وكنت رتبتُ لأن أختفي وأقوم بتصوير سالم بمجرد دخوله الڤيلا، فلو حدث الاحتمال الأول وهذا ما كنت أتمناه، فسيجنبني قتلها بيدي، وسيكون معي تسجيل لعملية القتل، ومن ثم تثبت عليه جريمة السرقة أيضًا.

ولو حدث الاحتمال الثاني (وهذا ما حدث بالفعل)، فسيكون لديَّ التسجيل الذي يُظهر المشاجرة، والتي من الممكن أن تُدينه بالقتل والسرقة.

أمَّا لو حدث الاحتمال الثالث، فكنت سأضطر لقتلهما معًا.

وفي الرابعة والربع وصل سالم واستقبلته مديحة بكامل زينتها، وكنت مختبئًا في مكان أستطيع منه التصوير بشكل جيد، وبعد مشاجرة سالم معها وخروجه، كانت مديحة في حالة دوار خفيف من أثر دفع سالم لها، فذهبتُ من خلفها وكأني أطمئنُّ عليها، وكانت تجلس وتحني رأسها للأمام، وتسنده بين يديها، فطعنتُها طعنةً فارقت بعدها الحياة.

ولكن لم أكد أخلع عن رقبتها العقد، والقرط الماسي والذي أبلغتني أنه أيضًا من الأشياء الثمينة جدًّا التي تمتلكها، حتى سمعت صوت أقدام، فاختبأتُ سريعًا، وإذا بالقادم زكي الذي وقف مشلولًا لثوانٍ، بعدها هرولَ للخارج، وبعده مباشرة دخل عمران ولم يبقَ إلّا ثواني وخرج مهرولًا أيضًا.

بدأتُ أُعاينُ موقع الحادث؛ لأتأكد أني لم أنسَ شيئًا، أو لم ألمس شيئًا، وإذا بي أسمع صوت خطوات قادمة، فاختبأتُ مرة أخرى.

كان القادم عمر، وبمجرد أن رآها، اندفع نحوها ونزع الخنجر من رقبتها، فأمسكت بتليفوني وبدأت أصور، ولكن لم ألحق به، ولكني صورت زوجته التي دخلت بعده مباشرة، وأخذت منه الخنجر، وخرج هو يجري، ثم خرجت من بعده.

غمرتني السعادة وأنا أحمل تسجيلين، كلٌّ منهما كفيل بوضع شخص في السجن متهم بقتل مديحة، وتأكدت أني نفذت الجريمة الكاملة.

انتظرتُ حتى حلَّ الظلام، وارتديتُ فوق ملابسي ملابس كانت في شنطتي، عبارة عن جلباب بلدي وكوفية، وأخفيتُ معظم وجهي بشال، وهو نفس الزي الذي يرتديه عمران؛ حتى إذا ما رآني أحدٌ، تصوَّر أني هو.

مشيتُ مسرعًا وكنت قد قمتُ باستئجار سيارة وضعتها في مكان ليس ببعيد عن الڤيلا، ركبتُها وانطلقتُ بها سريعًا، بعد أن خلعت الجلباب والكوفية.

بالمناسبة، أحبُّ أن أذكر لك أمرًا، كنت فيه أذكى منك؛ لأني اكتشفته ولم تكتشفه أنت، فقد خدعك مهند بقصة الجواهر المقلدة، ولكني كنت على يقين أنها أصلية ولم تتبدل؛ لأن مديحة أحضرتها لي ليلة الجريمة، وأعطتني منها خاتمًا من الألماس؛ لأُثمِّنه عند جواهرجي أعرفه؛ لرغبتها في بيعه واستبدال آخر به، فهي لم تعد تثق بالجواهرجي الخاص بها.

عندما أخبرنا مهند بقصة الجواهر المقلدة، ذهبتُ وثمَّنت الخاتم عند أحد أصدقائي، وعرفت أن الخاتم أصلي، فاتصلت بمهند بعد ذلك، وسألته عن اسم الجواهرجي الذي يتعامل معه، فوجدته يتهرب، ويستنكر كيف نكذبه، ونريد التأكد من الجواهرجي، وليس له أي مصلحة من أن يدعي أمرًا كهذا،

حيث إنه لن يعوض عنها، فهدأته وتيقنت من كذبه، واستنتجتُ أنه يريد خلق مزيدٍ من الشكوك حول زكي مستغلًّا علاقته بعمران، ولعلنا في النهاية نتهمه بقتل مديحة.

فيجب أن تعترف أنك لم تفطن لهذا، وأنا الذي فطنتُ.

في النهاية، أودُّ أن أؤكد لك، أني أرسلتُ لك الرسالة الموقعة باسم مديحة ليس فقط لتشتيتك، ولكني كنتُ على يقين أني نفَّذتُ الجريمة الكاملة، ولهذا دخلتُ معك تحديًا انتظرته خمس سنوات، عندما قابلتُك في إحدى القضايا، وأيامها تعاملتَ معي كما لو كنتَ تتعامل مع طفل لا يفهم، فلم أنسَ لك هذا قط، وصممت أن أنتظر اليوم الذي أتحداك فيه، حتى جاء.

ومهما يحدث فلن أعترف أنك الأذكى، ولكنها جولة انتصرتَ أنت فيها، وكان من المؤكد أني سأنتصر في جولات كثيرة أخرى، ولكن لحسن حظك أني لن أتقابل معك في تحدٍّ مرة أخرى، لأنني لا أستطيع العيش وسط هؤلاء الأغبياء".